فَصلٌ
في ذِكْر الخَليل عَلَيهِ السَّلام[١]

اختلفوا في نسبه على قولين:

أحدهما: أنه إبراهيم بن تارَح بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن عابر بن شالخ بن قينان بن أَرْفَخْشَذ بن سام بن نوح، حكاه السّدي عن أشياخه.

والثاني: إبراهيم بن تارَح بن أشرغ بن أرغو بن فالغ بن شالخ بن أرفخشذ بن سام ابن نوح، قاله وهب وابن قتيبة. قال ابن قتيبة: قابلت هذا النسب بما في التوراة فوجدته موافقاً لما فيها إلّا أني وجدت مكان أشرغ: شاروغ[٢].

واتفقوا على أن تارَح هو آزر، وبعضهم يقول: إنّ آزر اسم صنم، وليس بصحيح، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾[الأنعام: ٧٤].

وفي «إبراهيم» لغات ذكر بعضها الجوهري وبعضها ابن الجواليقي في «المعرب».

فأمَّا الجوهري فقال: وإبراهيم اسم أعجمي وفيه لغات: إبراهَامُ وإبراهَمُ [وإبراهِمُ][٣].

وقال ابن الجواليقي: وأمَّا إبراهيم ففيه لغات، قرأت على أبي زكريَّا عن أبي العلاء قال: إبراهيم اسم قديم وليس بعربيّ وقد تكلَّمت به العرب على وجوه فقالوا: إبراهيم وهو المشهور وإبراهَام [وقد قرىء به، وإبْراهِمُ على حذف الياء، وإبرَهَم][٤].

وقال الجوهري: وآزر اسم أعجمي[٥].

وقال البلاذُري عن الشرقي بن قطامي أن معنى آزر: السيّد المعين.

---

(١) انظر قصته في «تاريخ اليعقوبي» ١/ ٢٤، و«تاريخ الطبري» ١/ ٢٣٣، ومروج الذهب ١/ ٨٣، و«البدء والتاريخ» ٣/ ٤٥، و«عرائس المجالس» ص ٧٤، و«تاريخ دمشق» ٦/ ١٦٤، و«المنتظم» ١/ ٢٥٨، و«الكامل» ١/ ٧٢، و«البداية والنهاية» ١/ ١٣٩.

(٢) «المعارف» ص ٣٠.

(٣) «الصحاح»: (برهم)، وما بين معقوفين زيادة منه.

(٤) «المعرب» ص ٦١، وما بين معقوفين زيادة منه.

(٥) «الصحاح»: (أزر).

وقال سلمان التيمي: معنى آزر شين وعيب، وقيل: معناه في لغتهم المعوج.

وقال وهب: اسم أم إبراهيم نوتا بنت كرنبا من بني سام بن نوح، وكرنبا هو الذي حفر نهر كوثا بالعراق، نسب إلى أبيه أو إلى كوثا. وكوثا مدينة بابل، وكوثا قرية من سواد الكوفة، ومحلَّة بالكوفة، وبمكة أيضاً، وكان أهلها يؤذون النبيّ ﷺ[1]، وفيهم يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه[2]: [من الخفيف]

لعن الله أهل كوثاء داراً ورماها بالذلّ والاحتقار
لست أعني كوثا العراق ولكن ربّة الدار دار عبد الدار

وأراد عليّ رضي الله عنه بكوثا الثانية محلة بالكوفة كان ينزلها، قال: وهو معنى قوله: نحن من أهل كوثا. فأمّا كوثا العراق فهي مدينة بابل، ولم يذكرها الجوهري ولا في «المعرَّب».

وقال ابن سعد في «الطبقات»: وكنية إبراهيم أبو الأضياف[3].

فصل في أسمائه

قد سمَّاه الله تعالى بأسماء كثيرة:

منها: الأوَّاه، لقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[التوبة: ١١٤] وكان يكثر التأوُّه في الصلاة خوفاً من الله تعالى.

ومنها: الحليم والمنيب ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾[هود: ٧٥].

ومنها: الحنيف ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾[البقرة: ١٣٥] والحنيف: المائل إلى الدِّين.

ومنها: القانت والشاكر إلى غير ذلك. وقيل: إنَّ هذه أوصافٌ له.

وقال مقاتل: قد ذكر الله إبراهيم في القرآن في أحدٍ[4] وسبعين موضعاً.

---

(١) إلى هنا ينتهي الخرم في (ب).

(٢) البيتان لحسان بن ثابت رضي الله عنه وهما في ديوانه ص ١٠٩، وتاريخ بغداد ١/ ٢٨٧، ورواية الديوان:

لعن الله منزلاً بطن كوثى ورماها بالفقر والإمعار
لست أعني كوثى العراق ولكن شرة الدور دار عبد الدار

(٣) «الطبقات الكبرى» ١/ ٤٧.

(٤) في (ب) و(ل): إحدى، والمثبت من (ط).

وكان النبي ﷺ يثني عليه، قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أنس بن مالك قال: قال رجلٌ لرسول الله ﷺ: يا خير البريَّة، فقال: «ذاك إبراهيمُ عليه السَّلام». انفرد بإخراجه مسلم(١).

وقال هشام: لم يكن بين نوح وإبراهيم إلّا هود وصالح، وكان بين إبراهيم وهود ست مئة سنة وثلاثون سنة، وبين نوح وإبراهيم ألف ومئة وثلاث وأربعون سنة، وسنذكر ما بين النبيين من السنين فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وأكثرهم على أنه ولد بأرض بابل، إلا في قول(٢).

رجعنا إلى الحديث: قوله ﷺ عن إبراهيم: إنه خير البريَّة، قال أبو سليمان الخطابي: إلَّا أنَّ هذا الحديث منسوخ بقوله ﷺ: «أنا سيِّد ولدِ آدم»(٣).

ولمسلم أيضاً عن جابر عن النبي ﷺ قال: «عُرض عليَّ الأنبياءُ فرأيتُ إبراهيمَ فإذا أقرَبُ من رَأيتُ شبيهاً صَاحِبُكم» يعني نفسه، وذكر موسى وعيسى(٤). وسنذكره في موضعه.

وقال ابن عباس: سمَّى الله الخليل شجرة في قوله: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[النور: ٣٥] وإنما سمَّاه شجرة لأنَّ أكثر الأنبياء من صلبه، وقد ذكرنا أنه ولد بأرض بابل إلا في قول.

ذكر مولده عليه السَّلام

قال علماء السِّير: ولد الخليل في زمان نمرود الجبَّار، رأى المنجِّمون والكهَّان سيرته في علومهم، فقالوا لنمرود بن كنعان: إنَّا لنجد في علومنا أنَّ غلاماً يولد في قريتك هذه يفارق دينكم ويكسر أوثانكم، يقال له: إبراهيم، يولد في شهر كذا وكذا في سنة كذا وكذا.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٢٨٢٦)، ومسلم (٢٣٦٩).

(٢) انظر الاختلاف في مكان ولادته ﷺ في «تاريخ الطبري» ١/ ٢٣٣.

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم (١٦٧)، ولفظه: فإذا أقرب من رأيت به شبهاً صاحبكم.

فلمَّا دخلت السنة المذكورة بعث نمرود إلى كلِّ حامل فحبسهنَّ عنده ولم يعلم بحبل أم إبراهيم، فجعل لا يولد غلام في ذلك الشهر إلّا ذبحه[١].

قلت: وهذا من سفه نمرود، لأنه إن كان قد جرى القدر بإزالة ملكه ودينه فلا بدَّ من ذلك، ولا ينفع الاحتراز، وإن لم يكن جرى القدر بذلك فأين الغلام المطلوب حتى يذبح الغلمان كلهم؟! وعلى هذا قصة فرعون لما أمر بذبح الأطفال احترازاً من موسى عليه السَّلام.

وقال وهب: إنما وجد مولد إبراهيم وسيرته في علوم إدريس، ومن هناك أخذ المنجمون.

وقال الضحَّاك: رأى نمرود في منامه كأنَّ كوكباً طلع فذهب بضوء الشمس والقمر، فارتاع ودعا بالسَّحرة والكهَّان والقافة فأخبرهم بما رأى، فقالوا: يولد مولود من صفته كذا وكذا.

وقال ابن إسحاق: لم تعلم أم إبراهيم بحبلها لأنَّها كانت جارية حديثة السنِّ[٢].

وقال السُّدي: كان آزر من خواصِّ نمرود، لما قال له الكهَّان ما قالوا خرج من المدينة فنزل ظاهرها، فعرض له أمر مهم إلى قصره، فقال لآزر: أنت أميني وصاحبي، اذهب إلى الحاجة الفلانية ولا تلمَّ بأهلك، فقال آزر: أنا أشَحُّ على أمانتي من ذلك. فلمَّا دخل المدينة وقضى الحاجة قال: ما يضرني لو نظرتُ إلى أهلي من غير مباشرة؟ فجاء إلى منزله فواقع امرأته، فحملت بإبراهيم وأخبرت الكهنةُ نمرودَ بأنَّ أمَّ الغلام قد حملت به في هذه الليلة، فلم يذهب فكره إلى آزر ثقةً به، وأقامت أمُّ إبراهيم تخفي حملها إلى زمان ولادتها، وضربها الطلق فخرجت إلى مغارة فوضعته هناك، ثمَّ سدَّت بابها، وكانت تتعاهده فتراه يمصُّ إبهامه واللَّبن يدرُّ منه[٣].

وقال مقاتل وابن إسحاق: كان يمصّ من إصبع لبناً، ومن إصبع عسلاً ومن أخرى

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٢٣٤، و«المنتظم» ١/ ٢٥٩.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٢٣٤.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٧٥.

ماء. وسألها آزر عن حملها فقالت: ولدت جاريةً ميتة، فسكت عنها.

وذكر الثعلبي: أن أمَّه أخبرت أباه به فحفر له سَرَباً وسدَّ عليه الباب بصخرة مخافة السّباع.

واختلفوا في أيّ مكان ولد على أقوال:

أحدها: ببابل من أرض السَّواد، مدينة نمرود، قاله ابن عباس.

والثاني: بكُوثا، مكان محلّة بالكوفة، قاله مجاهد.

والثالث: بالسُّوس من أرض الأهواز، قال عكرمة.

والرابع: بين الكوفة والبصرة، قاله السُّدي.

والخامس: بكَسكر ثم نقله أبوه إلى كوثا، قاله الرَّبيع بن أنس.

والسادس: بحرَّان ثم نقله أبوه إلى بابل، قاله وهب. والأول أصح.

وقال السُّدي: لمّا تبيّن حملها، حَمَلها آزر إلى أرضٍ بين الكوفة والبصرة يقال لها: أورى، فأنزلها في سَرَب، وجعل عندها ما يصلحها، فولدت هناك، ثم ردَّها إلى بابل.

وقال الحافظ أبو القاسم في «تاريخ دمشق» عن ابن عباس: أنَّ أمَّه كانت تَخْبَؤُه في كهف في جبل قاسيون، بقريةٍ يقال لها: برزة، في الموضع الذي يعرف اليوم بمقام إبراهيم، وأنه ولد في هذا المكان ويسمّى برزة قاسيون.

ثم اعترف أبو القاسم بالحقِّ ووافق أرباب السِّير فقال: والصحيح أنه ولد بكوثا من إقليم بابل من أرض العراق، وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه لمّا هاجر إلى الشام صلى فيه[1]. وهذا أشهر.

فصل في النماردة

قال علماء السِّير: النماردة ستة:

أحدهم: نمرود بن كنعان بن سنحاريب بن كوش بن حام بن نوح وقيل: نمرود بن كنعان بن سنحاريب بن نمرود بن كوش وملك الأقاليم كلها، وهو أول من لبس التاج

(١) تاريخ دمشق ٦/ ١٦٤.

في قول السُّدي، وادَّعى الربوبيَّة، وعمل بأحكام النجوم وكان أجبرَ النماردة.

قال السُّدي: وهو أحد الأربعة الذين ملكوا الدنيا في قوله عليه السّلام: «ملك الدنيا مؤمنان وكافران» وقد ذكرنا الحديث[1]، وهو أحد الكافرين.

وقال هارون بن المأمون: كان نمرود هذا غلاماً للضحَّاك بن الأهبوب، وهذا هو صاحب النسور.

والثاني: نمرود بن كوش بن حام جدّ هذا، قاله مقاتل.

والثالث: نمرود بن شاش بن كنعان بن حام بن نوح.

والرابع: نمرود بن سنحاريب بن كوش بن كنعان.

والخامس: نمرود بن ساروغ بن أرغو بن فالغ من ولد سام بن نوح.

والسادس: نمرود بن كنعان بن المضّاض بن يقطن، أو يقطان، من ولد سام بن نوح.

قال مقاتل: فأربعة منهم من ولد حام بن نوح، واثنان من ولد سام بن نوح.

فصل فيما جرى للخليل عليه السّلام في السَّرَب ورؤيته الكواكب

قال السُّدي فيما رواه عن أشياخه: كان إبراهيم يشبّ في كل يوم مثل ما يشبّ غيره في شهر، وفي شهر مثل غيره في سنة، وفي سنة مثل غيره في سنتين.

وقال مقاتل: لما أتى عليه سنة تكلَّم، وهو أول كلامه، فقال: يا أمَّاه من ربي؟ قالت: أنا، قال: ومن ربّك؟ قالت: أبوك، قال: ومن ربُّ أبي؟ قالت: نمرود، قال: ومن ربُّ نمرود؟ فلطمته وقالت: اسكت. ثم رجعت إلى أبيه وقالت: أرأيت الغلام الذي كنا نتحدث أنه يغيّر دينَ أهل الأرض؟ قال: لا، قالت: إنه ابنك. ثم أخبرته بما قال، فجاء إليه أبوه فقال له مثل ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[الأنعام: ٧٥] الآية. قال مجاهد: قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ﴾ الضمير يعود على قوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ

(١) سلف في فصل من ملك الأرض وسلكها وقطع سبلها.

مِن قَبْلُ﴾[الأنبياء: ٥١] وهو قوله لأمه: من ربُّكِ، فإنَّ الله ألهمه التوحيد والإيمان. وكذا أريناه ملكوت السَّماوات والأرض. و«الملكوت»: الملك زيدت فيه الواو والتاء كما زيدت في الجبروت.

وقال مقاتل: والمراد بملكوت السماوات: الشمس والقمر والنجوم والأفلاك والأملاك ونحوها، وبملكوت الأرض: الجبال والشجر والبحار والأنهار والمعادن والحيوانات والنبات.

قال مجاهد: وهذا كله رآه في النهار عياناً، كشف عن السَّماوات فرأى العرش، وعن الأرض فرأى الأرض السابعة.

وقال مقاتل: إنما رأى ملكوت السماء في الليل، وملكوت الأرض في النهار.

وقال ابن عباس: أري خلق السَّماوات والأرض.

وقال سعيد بن جبير: آيات السماوات والأرض، أقيم على صخرة وكشف له عن ذلك حتى نظر إلى مكانه في الجنَّة.

وحكى الثّعلبي عن قتادة قال: إنَّ إبراهيم عليه السَّلام حدَّث نفسه أنّه أرحم الخلق، فرفعه الله حتى أشرف على أهل الأرض، ورأى أعمالهم، فلمّا رآهم يعملون بالمعاصي قال: اللهمَّ دمّر عليهم، والعنهم، فقال له ربُّه: أنا أرحمُ بعبادي منك، اهبط، لعلَّهم يتوبون.

وقال الثعلبي بإسناده عن قيس بن أبي حازم، عن عليّ كرّم الله وجهه، عن النبي ﷺ قال: «لمّا أرى الله إبراهيم ملكوت السّماوات والأرض أشرف على رجل يَعْصي الله فدعا عليه فهلك، ثم أشرف على آخر فدعا عليه فهلك، وعلى آخر، فلمّا أراد أن يدعو عليه أوحى الله إليه أن يا إبراهيم، إنَّك رجلٌ مُجابُ الدَّعوة فلا تدعونَّ على عبادي، فإني منهم على ثلاث خصال: إمّا أن يتوبوا فأتوبَ عليهم، وإمّا أن أُخْرِجَ منهم نسمةً تسبّح، وإمّا أن يبعثوا إليّ فإن شئتُ عفوتُ عنهم وإن شئتُ عاقبتهم»[1].

قلت: وينبغي أن تكون هذه الآية مؤخّرة في التلاوة لأنه إنما أري ملكوت

(١) انظر هذه الآثار في تفسير الطبري ٨/ ٣٤٧ـ٣٥١.

السماوات والأرض ـ على قولهم ـ وهو في السّرب، ابن سنة أو سنتين أو ثلاث، فكيف يقال له: أنت رجل مجاب الدّعوة؟!

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾[الأنعام: ٧٦] إلى آخر القصّة.

قال علماء السِّير: لما قال لأبويه: مَن ربي؟ وأنكرا عليه قال: أخرجوني من السَّرَب، فأخرجاه. و«جنَّ الليل»: أظلم وغطّى كل شيء، ومنه سمِّيت الجنُّ لاجتنانها فلا ترى. وقال أبو عبيدة: جنون الليل سواده[١].

واختلفوا في الكوكب الذي رآه:

فقال مجاهد: المشتري. وقال مقاتل: الزهرة. وقال ابن عباس: رأى أنورَهما وأشرَقهما، أو أنورَها وأشرَقها، وإنما رأى الكوكب قبل القمر، لأنها كانت آخر ليلة في الشهر والقمر لا يطلع فيها في أوّل الليل[٢].

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي: غاب ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾[الأنعام: ٧٦] قال الرَّبيع: معناه لا أحبُّ ربّاً لا يدوم ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ أي: طالعاً ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ قال ابن عباس: عَبَد الكوكب حتى غاب، ثم عبَدَ القمر حتَّى غاب. ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾[الأنعام: ٧٧] أي: عن الهدى ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾[الأنعام: ٧٨] فعبَدَها حتى غابت؛ وقد نصَّ ابن عباس على هذا.

فإن قيل: فلمَ لَمْ يقل في الشمس: هذه ربي، وقال: هذا ربي؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه رأى ضوء الشمس وهو الشعاع، ولم ير عين الشمس فردَّ النظر إلى الشعاع، ذكره محمد بن مقاتل الرَّازي.

والثاني: أنه أراد الطالع، أي: هذا الطَّالع ربي، فإنه أضوأ وأعظم، حكاه الأخفش.

والثالث: أنَّ على رأي المنجمين أنَّ الشمس ذكر والقمر أنثى[٣]، وهذا جواب لم أُسبق إليه.

---

(١) انظر مجاز القرآن ١/ ١٩٨.

(٢) انظر تفسير الطبري ٩/ ٣٥٦، وزاد المسير ٣/ ٧٣.

(٣) انظر زاد المسير ٣/ ٧٥ـ٧٦.

فصل في الكلام على الآية

واختلفت العلماء في هذا فأجراه بعضهم على ظاهره وقالوا: إنما كان إبراهيم مسترشداً طالباً للتوحيد حتى وفَّقه الله تعالى وآتاه رشده. ومثله قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾[الشورى: ٥٢] ومعناه: فلمّا آتاك علمت.

قالوا: وهذا كان في زمان الطفولة، فإنه كان ابن سنة أو ثلاث، والدليل عليه قول ابن عباس: فلمَّا رأى الكوكب عبده، فلما رأى القمر عبدَهُ. وأنكر الآخرون هذا ـ وهؤلاء القائلون بتنزيه الأنبياء عليهم السّلام ـ وقالوا: هذا التأويل غير مستقيم لأنّ الأنبياء منزَّهون عن هذا، وغير جائز أن يكون لله رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلَّا وهو لله مُوحِّد وبه عارف، ومن كل معبود سواه بريء، وخصوصاً الخليل، فإنّ الله آتاه رشده من قبل، وقال: ﴿أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الشعراء: ٨٩] فكيف يُتوهم هذا على من عصمه الله وطهَّره وجعله أصل الأنبياء، وقال في حقِّه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾[الأنعام: ٧٥] أفتراه أراه الملكوت ليوقن، فلمّا أيقن كان ثمرة إيقانه أنّه لمّا رأى الكوكب قال: هذا ربي؟! هذا غير جائز.

قالوا: وفيه أربعة أوجه من التأويل:

أحدها: أن إبراهيم أراد أن يستدرجهم بهذا القول، ويعرّفهم خطأهم وجهلهم، ويقيم الحجة عليهم، فأراهم تعظيم ما عظَّموا وملتمس الهدى من حيث ما التمسوا، فلمّا أفل أراهم النَّقص الداخل على النجوم، ليتيقَّنوا خطأ ما كانوا يدَّعون من تعظيم النجوم وعبادتها. قالوا: ونظير هذا الحواري الذي ورد على قوم يعبدون صنماً لهم، فأظهر تعظيمه وأراهم الاجتهاد في دينهم فأكرموه وعظَّموه، وصدروا في كثير من الأمور عن رأيه إلى أن دهمهم عدوّ لهم خافه الملك على مملكته، فشاوروا الحواريَّ في أمره فقال: الرَّأي أن ندعو إلهنا ـ يعني الصنم ـ حتى يكشف ما بنا فإنَّا لمثل هذا اليوم كنا نرجوه. فاجتمعوا حوله يجأرون ويتضرَّعون، وأمرُ عدوّهم يستفحل. فلمّا تبيَّن لهم أن صنمهم لا ينفع ولا يدفع ولا يسمع قال الحواريّ: ها هنا إله تدعونه فيسمع ويجيب وينفع، فهلمّوا ندعوه، فدعوا الله تعالى وتضرَّعوا إليه، فصرف عنهم ما كانوا

يخافون من عدوّهم، فأسلموا.

والوجه الثاني: أنَّ إبراهيم رآهم يعبدون الشمس والقمر والنجوم، فقال لهم ـ على سبيل الاستفهام والتوبيخ، مُنكِراً لفعلهم ـ: هذا ربي؟! أي أهذا ربي أم لا؟.

والثالث: أنَّ معناه: ليس هذا ربّاً لي، ومثله قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

والرّابع: أن في الآية تقديماً وتأخيراً وإضماراً، وتقديره: ويقولون هذا ربي، حكاية عنهم[1].

قلت: وقد بسط أبو إسحاق الثعلبي الكلام في هذا الوجه وبالغ، والعجب منه ـ وقد اتفق العلماء ـ أنه إنما قال ذلك عند خروجه من السَّرَب، وهو ابن ثلاث سنين، فيا ليت شعري: أين كان قومه في ذلك الوقت؟ وهل كانت أمه وأبوه يخبران بحاله مخافة عليه؟ فقوله في الوجه الأول إنه أراد أن يستدرجهم باطل، وأمَّا عن الوجه الثاني وما بعده فإنَّ حروف الاستفهام لا تضمر إذا كان الاستفهام فارقاً بين الإخبار والاستخبار، فلا يقال هذا زيد في الإخبار، ومعناه: أهذا زيد، وكذا قولهم معناه: هذا ربّاً لي، لا يجوز أن يحمل الاستفهام على ليس ولا الإخبار، وكذا قولهم إنه حكاية عنهم، لأنه يكون حينئذ عدولاً عن الحقيقة إلى المجاز، وأنه قلب الموضوع.

والصَّواب: حمل الكلام على ظاهره، وأن ذلك وقع من الخليل وهو في زمان الطفولية، والأنبياء غير معصومين في تلك الحالة، فَحَمْلُ الكلامِ على ظاهره مع إقامة عذر الخليل أولى من حَمله على هذه التأويلات الضعيفة.

والدَّليل على صحَّة هذا قوله عقيب ذلك: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[الأنعام: ٧٩] الآية.

فصل في كسره الأصنام

قال وهب بن منبه: يقال: إنَّه أقام في السَّرَب ثلاث سنين، وقيل: سبع سنين. فلمَّا

(١) انظر تفسير الطبري ٩/ ٣٥٦ـ٣٦٠، وزاد المسير ٣/ ٧٣ـ٧٥.

أظهر آزر أنه ابنه وأنه كان غائباً عنه رقَّ عليه أبوه، وكان أبوه يعمل الأصنام فيعطيه الصنم ليبيعه، فيخرج به إلى السوق فيقول: من يشتري مني ما لا ينفعه ويضرُّه، كذا روى وهب[١].

وذكر جدي في «التبصرة»: أنه كان يقول: من يشتري من يضره ولا ينفعه[٢].

ثم يأتي بها إلى النهر فيضرب رؤوسها ويقول: اشربي، استهزاء بها وبقومه، لما هم عليه من الضَّلال، حتى فشا عيبه إيَّاها في أهل البلد، وجعل يقول لقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾[الأنبياء: ٥٢] أي: مقيمون على عبادتها، ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾[الأنبياء: ٥٣] فنحن نقتدي بهم ونقلِّدهم.

قال ابن عباس: وكان لهم يوم عيد يجتمعون فيه، فخرج معهم ثم ألقى نفسه في الطريق، وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾[الصافات: ٨٩].

فإن قيل: فكيف نظر نظرة في النجوم؟ قلنا: إنما قصد موافقتهم، لأنهم كانوا ينظرون في النجوم، ليتمكن من كسر الأصنام، فلا ينكرون عليه. ومعنى قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: سأسقم، لأن الإنسان لا يخلو من السقم. وقيل معناه: إني سقيم عن عبادتها، فكان من المعاريض.

فلمَّا مضوا وتركوه قال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾﴿الأنبياء: ٥٧] والكيد احتيال الكائد في ضرِّ المكيد. وكان لهم اثنان وسبعون صنماً من ذهب وفضة وغير ذلك من الرَّصاص والصُّفر والنُّحاس والخشب وغيرها، وكان كبيرهم من ذهب، وعيناه ياقوتتان. وكانوا في ذلك العيد يذبحون الذبائح ويقربون القرابين، ويضعون الطعام بين يدي الأصنام قبل خروجهم إلى عيدهم، يزعمون للتبرك عليه، فإذا انصرفوا من عيدهم دخلوا عليها فأكلوه.

﴿فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ [الصافات: ٩٠] أي: إلى عيدهم. فدخل إبراهيم دار الأصنام، فكسر الجميع، وعلَّق الفأس في رأس الصنم الكبير، فلمَّا فرغوا من عيدهم دخلوا عليها فرأوها على تلك الحال.

---

(١) انظر عرائس المجالس ٧٦.

(٢) «التبصرة» ١/١٠٦.

قال مقاتل: فذلك قوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾﴾[الصافات: ٩١] يعني من الطعام الذي بين أيديهم، يستهزىء بهم. ثم قال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾[الصافات: ٩٣] لأنها أقوى عملاً من اليسار[1]. وكان قد أقسم بقوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾[الأنبياء: ٥٧] ففعل ما حلف عليه. واليمين: القوّة.

﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾[الصافات: ٩٤] وهو حال بين الإسراع والروِيد، ومنه زفيف النعام بين المشي والطيران ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ [الأنبياء: ٥٩] يا إبراهيم، فنمَّ عليه رجل كان قد سمعه يقول: والله لأكسرنَّها، فقال ذلك النمَّام: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾[الأنبياء: ٦٠] أي: يعيبهم ويسبهم ﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١] ومعنى: أعين الناس أي: بمرأىً منهم وفي ﴿يَشْهَدُونَ﴾ قولان، أحدهما: عذابه. والثاني: يشهدون عليه أنه فعل ذلك.

قال ابن عباس: كرهوا أن يأخذوه بغير بيّنة. فلما حضر ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٢ـ٦٣] غضب أن يعبد معه الضعفاء فكسرها.

وكان الكسائي يقف على قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ﴾ ثم يبتدىء فيقول: ﴿كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣، ٦٤][2] حيث عبدتم من لا يتكلم.

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾[الأنبياء: ٦٥] أي: أدركتهم حيرة وقالوا: قد ظلمناه وما نرى الأمر إلا كما قال ولكن أرادوا أن ينصروا آلهتهم.

قال مقاتل لما جادلوه قال لهم: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥] أي: وعملكم.

قلت: وفي هذه الآية دليل على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى حيث قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ وعلى أنها مكتسبة للعباد حيث أثبتت لهم عملاً، فأبطل مذهب القدريَّة والجبريَّة.

---

(١) من قوله ولا الإيمان ومعناه فلما آتاك . . . إلى هنا ليس في (ب).

(٢) انظر «التبصرة» ١/ ١٠٧، و«زاد المسير» ٥/ ٧٦٠.

فصل في مناظرته لنمرود

قال علماء السير: لما ألزمهم إبراهيم الحجَّة حملوه إلى نمرود، وقالوا: هذا فعل بآلهتنا، وقال لنا كذا وكذا.

وأصل حاجَّ من الحجة، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾[البقرة:٢٥٨] وهل كانت هذه المناظرة بعد أن ألقي في النار أم عقيب كسر الأصنام؟ فيه قولان.

وقال مقاتل: لما كسر الأصنام حبسه نمرود سبع سنين ثم أخرجه فناظره، فقال: من ربك؟

وقال أحمد بإسناده عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: كان الناس يخرجون فيمتارون الطعام من نمرود، وكان كلٌّ من مرَّ بنمرود يقول له: من ربك؟ فإن قال: أنتَ مَارَهُ، وإن لم يعترف لم يعطه شيئاً، فمرَّ به إبراهيم فقال: من ربُّك؟ فقال: ﴿ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾[البقرة:٢٥٨] فردَّه، فرجع وأجماله فارغة، فمرَّ على كثيب رمل أعفر فقال: آخذ منه لئلا أرجع إلى أهلي بغير شيء، فأخذ منه، فلمَّا دخل البيت نام، وكان ليلاً، فقامت امرأته إلى جوالق ففتحته فإذا دقيق حُوَّارى، فخبزت منه، فلمَّا استيقظ رأى الطعام، فحمد الله وفطن، ثم ناظر نمرود بعد ذلك[1].

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾[البقرة:٢٥٨] هذا جواب نمرود لما قال له: مَن ربُّك؟ فكان جواب سؤال سابق غير مذكور، فقال نمرود: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾[البقرة:٢٥٨] قال ابن عباس: دعا برجلين قد استوجبا القتل، فقتل أحدهما واستبقى الآخر، فسمَّى تركَ القتل إحياءً، وهذا من جهله لأنَّ ترك القتل لا يسمّى إحياءً، بل الإحياء يكون بعد الموت. قال إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ أي: دهش وتحيَّر وانقطعت حجَّته ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة:٢٥٨] بترك الحجَّة.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٥/ ٤٣٣ (شاكر)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢/ ٣٢٠ (مخطوط)، ولم أقف عليه عند أحمد.

فإن قيل: فانتقال الخليل من حجَّة إلى أخرى مؤذن بالعجز، فالجواب: إنه ما انتقل عجزاً، وقد كان له أن يقول لنمرود: فأحيي من أَمتَّ إن كنت صادقاً، وهذا له نظير في العالم، أمَّا إتيان الشمس من المغرب فليس له نظير في العالم، لأنه لا يقدر عليه إلّا الله تعالى، حتى لو قال نمرود: أنا أفعل ذلك لم يلتفت إليه، لعدم النظير، فأفحمه وبهته وقطعه وحيَّره، فعدل حينئذ نمرود إلى إحراقه بالنار.

فإن قيل: فقد قال مقاتل: لو قال نمرود: فأنا آتي بها من المشرق فقل لإلهك يأتي بها من المغرب، لكان متوجِّهاً في عناده، قلنا: لم يكن متوجهاً لما ذكرنا من عدم النظير، ولو توجَّه فقد نطقت الأخبار بأنَّ الله تعالى يأتي بها في آخر الزمان من المغرب فيكون ردّاً على نمرود.

فصل في إلقائه في النار

قال أرباب السِّير: لما أُفحم نمرود استشار أصحابه فيه، فكل واحد أشار بشيء، فقال رجل منهم: حرِّقه بالنار، فهو أشدُّ لعذابه. قال ابن عباس: فخسف بذلك الرجل فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة. فبنى له نمرود بنياناً إلى سفح جبل طول جداره ستون ذراعاً، وعرضه عشرون ذراعاً، ونادى مناديه: أيّها الناس احطبوا لنار إبراهيم الذي كسر أصنامكم وعابها، فلم يتخلَّف صغير ولا كبير، فأقاموا أربعين يوماً يحتطبون، حتّى إن المرأة كانت تقول: إن ظفرت بكذا وكذا لأحتطبنَّ لنار إبراهيم.

وحكى أبو القاسم في «تاريخ دمشق» عن عليِّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه أنه قال: كانت البغال تتناسل وكانت أسرعَ الدوابّ في نقل الحطب لنار إبراهيم، فدعا عليها فقطع الله نسلها وأعقم أرحامها. قال: وكانت الضفادع تسكن النّار، فقال: فجعلت تطفىء النار عنه، فدعا لها فأنزلها الله الماء، وكانت الأوزاغ تنفخ على النار وهو فيها، وكانت أحسنَ الدوابّ، فلعنها وأمر بقتلها[1].

وأسند أبو القاسم حديثاً عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «لمّا ألقي إبراهيم في النّار جعلت الدواب كلّها تطفىء النار عنه إلّا الوزغ فإنها كانت تنفخ عليه» قال: وكان عند

(١) «تاريخ دمشق» ٦/ ١٨٥.

عائشة رضي الله عنها رمح تقتل به الوزغ، وقالت: أمر رسول الله ﷺ بقتل الوزغ، قال: وقد رواه ابن عبّاس وابن عمر(١).

قلت: ولا يصحُّ هذا عن رسول الله ﷺ، وإنما هو موقوف على علي كرم الله وجهه وعائشة رضي الله عنها.

وقال مقاتل: ارتفع لهب النار حتى كان الطَّير يمرُّ بها فيحترق من لهبها، فلمَّا ساوى الحطب رأس الجدار لم يدروا كيف يلقونه، فتمثل لهم إبليس في صورة نجار، فصنع لهم المنجنيق، فهو أوَّل من صنعه، ولم يكن يُعْرَفُ قبل ذلك، فنصبوا المنجنيق على رأس الجبل ووضعوه فيه، فرفع إبراهيم رأسه إلى السماء وقال: اللهمَّ أنت الواحد في السّماء، وأنا الواحد في الأرض، ليس في الأرض أحد يعبدك غيري، وليس في السماء إله يُعبَد سِواك، أنت حسبي ونِعم الوكيل(٢).

وروى البخاري عن ابن عباس أنَّ هذه آخر كلمة قالها إبراهيم.

فلمَّا ألقوه عارضه جبريل في الهواء وناداه: يا إبراهيم ألَك حاجة؟ قال: أمّا إليكَ فلا، فقال: سَل من إليه الحوائج، فقال: علمه بحالي يغني عن سؤالي(٣). وفي رواية: أحبُّ الأمرين إليه أحبهما إليَّ.

وقال أهل المعاني: لسان حال الخليل يقول: حاجتي إلى الجليل لا إلى جبريل.

وقال عبد الله بن أحمد بإسناده عن بكر بن عبد الله المزني قال: لما ألقي إبراهيم في النار جأرت الخليقة إلى ربها وقالت: يا ربّ خليلك يُلقى في النار، فأُذَنْ لنا أن نطفئ عنه، فقال الله تعالى: هو خليلي ليس لي في الأرض خليل سواه، وأنا ربّه ليس في السّماء ربّ غيري، فإن استغاث بكم فأغيثوه، وإلَّا فدعوه. فجاء ملك القطر فقال: يا ربِّ، خليلك يلقى في النّار، فقال: إن استغاث بك فأغثْه، وإلَّا فدعه. وفي رواية: وإن لم يدعُ غيري فأنا وليُّهُ، [فلما ألقي في النار دعا ربه] قال الله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾[الأنبياء:٦٩] فبردت محل كل نار يومئذ على أهل المشرق

(١) «تاريخ دمشق» ٦/ ١٨٥ـ١٨٦.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٢٤١ـ٢٤٢، و«المنتظم» ١/ ٢٦١.

(٣) انظر «التبصرة» ١/ ١١٥.

والمغرب فلم ينضج بها كراع[١].

وقال ابن عباس: لم يبق يومئذ في الأرض نارٌ إلّا طفئت ظنّت أنها هي التي تعنى، قال: ولو لم يقل ﴿سَلَٰمًا﴾ لمات إبراهيم من البرد[٢].

وقال مجاهد: لو لم يقل: سلاماً، لم ينتفع بها أحد إلى يوم القيامة.

وحكى أبو القاسم في «تاريخ دمشق» عن سفيان الثوري أنه قال: أوحى الله إلى النّار لئن نلت من إبراهيم أكثر من حلِّ وثاقه لأعذِّبنّك عذاباً لا أعذِّبه أحداً من خلقي، وفي رواية: عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين[٣].

وقال السُّدي: لما وصل إلى النّار تلقَّته الملائكة بأيديها وأخذت بضَبْعَيْه، وجاءه جبريل بقميص من الجنَّة، وطنفسةٍ من الجنَّة، فأَلبسه القميص وأجلسه على الطنفسة، وصار المكان روضةً، وأنبع الله له عيناً من الماء العذب، وأنبت حوله الورد والرياحين والياسمين، وقعد جبريل يتحدَّث معه.

وحكى المنهال بن عمرو قال: أقام إبراهيم في النار أربعين يوماً، وكان يقول بعدما خرج منها: ما طاب لي عيش غير تلك الأيام، وددتُ أني كنت فيها أبداً[٤].

وحكى الحافظ في «تاريخ دمشق» عن عكرمة قال: قالت أم إبراهيم لما ألقي في النار: قد كان ابني يقول: إنّ له ربّاً يمنعه، ثم صعدت على سُلَّم فاطَّلعت عليه، فإذا هو جالس وسط النار فقالت: يا إبراهيم، ادعُ إلهك أن يجعل لي طريقاً إليك، فسأل الله تعالى، فنزلت إليه فضمَّته وقبَّلته[٥].

وحكى الحافظ أيضاً عن عكرمة قال: لما أخرج الله إبراهيم من النَّار زاده في حسنه وجماله سبعين ضعفاً[٦].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ١/ ١٩ من طريق عبد الله بن أحمد، وما بين معقوفين زيادة منه.

(٢) انظر «التبصرة» ١/ ١١٥.

(٣) «تاريخ دمشق» ٦/ ١٨٢ـ١٨٣.

(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ٧٩.

(٥) «تاريخ دمشق» ٦/ ١٨٤.

(٦) «تاريخ دمشق» ٦/ ١٨٤.

وقال مقاتل: قال آزر لنمرود: ائذن لي في جمع عظام إبراهيم، فقال: أنا أجيء معك، فنادى في الناس فاجتمعوا وجاء ومعه الخلائق فنقب الحَيْر[١]، وإذا بإبراهيم جالس وجبريل إلى جانبه وهما يتحدثان، فتحيَّر نمرود وناداه: يا إبراهيم، إن إلهك لعظيم، إن إلهك الذي بلغت قدرته هذا لكبير، فقام إبراهيم يمشي حتى خرج من الحَيْر، فقال له: مَن ذلك الشابُّ الذي كان معك؟ فقال: جبريل ـ وفي رواية: ملك القطر، وملك الظلِّ ـ جاؤوا يؤنسونني فقال: يا إبراهيم أريد أن أقرِّب لإلهك قرباناً لما رأيتُ من قدرته، قال: إنّه لا يقبل منك ما دمت على كفرك، فقال: لا أقدر أن أترك ملكي، ثم ذبح أربعة آلاف بقرة وكفَّ عن إبراهيم[٢].

واختلفوا في عمره لما ألقي في النار على قولين:

أحدهما: أنَّه كان له ستّ عشرة سنة، قاله مجاهد، والثاني: ثلاثون سنة، قاله ابن إسحاق، والأول أصح.

فصل في ذكر إيمان لوط وسارة

قال علماء السِّير: لما ظهرت الآية العظيمة في نار إبراهيم اتَّبعه رجال من قومه على وجل من نمرود، منهم لوط، وكان ابن أخيه.

وقال ابن قتيبة: وجدت في «التَّوراة»: أنه ولد لتارَخ ـ وهو آزر أبو إبراهيم ـ ولدان: ناحور وهاران، وولد لهاران لوط وسارة وملكا، فمات هاران في حياة أبيه تارخ في أرضه التي ولد بها، [فنكح إبراهيم سارة ابنة هاران] ونكح ناحور ملكا بنت هاران. وكانت سارة عاقراً لم تلِد، فخرج تارخ بابنه إبراهيم وابن ابنه لوط إلى حرَّان وخرج معهم، فمات تارخ أبو إبراهيم بحرَّان[٣].

قلت: وقول ابن قتيبة: أنَّ ناحور بن تارخ نكح ملكا غير صحيح، لأنها أخت ناحور

---

(١) في (ب): «الجدار» ولعل ما أثبتناه هو الصواب، فقد ذكر ابن عساكر في «تاريخه» ٦/ ١٧١ أن نمرود وضع إبراهيم في السجن بضع سنين، بنى له الحير بحصى، وأوقده بالحطب الجزل، وألقى إبراهيم فيه.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٢٤٢ـ٢٤٣.

(٣) «المعارف» ص ٣١، ومابين معقوفين زيادة منه.

وكلاهما ابنا هاران، فكيف ينكح أخته؟

وحكى ابن قتيبة عن وهب: أنَّ أوَّل من بنى حرَّان أخوان لإبراهيم يقال لأحدهما: هاران، وبه سمِّيت حرَّان، جعلوا الهاءَ حاءً، وبعضهم قال: يقال له «ناهر» وهو أبو رفقا امرأة إسحاق[١].

قال ابن قتيبة: ويقال له هرن بغير ألف، وبعضهم يقول هارن.

وقال ابن الجواليقي في «المعرب»: وحرّان اسم البلدة معربة، وهي مسماة بهاران بن آزر أخي إبراهيم[٢].

وذكرها الجوهري، وقد حكيناه في باب البلدان.

وقال قتادة: كانت سارَة ابنة عمِّ إبراهيم، هذا هو المشهور، وقيل: إنها كانت ابنة ملك حرَّان، وكان قد بلغها خبر الخليل عليه السَّلام، فآمنت به وعابت على قومها عبادة الأوثان، فلمَّا قدم الخليل حرَّان تزوَّجته على أن لا يغيرها[٣].

وقد نسبها هشام بن الكلبي عن أبيه فيما أخرجه عنه ابن سعد في «الطبقات» فقال: هي سارَة بنت بثويل بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن فالِغ ـ أو فالخ ـ بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام[٤].

فصل في عرض إبراهيم على أبيه آزر الإسلام

قال علماء السِّير: قال لأبيه: قد شاهدت الآية العظمى والمعجزة الكبرى ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾[مريم: ٤٢] الآيات. فأجابه أبوه بجواب من غلب عليه الشقاء ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾[مريم: ٤٦] وليس هذا بجواب شافٍ، لأنه قد علم رغبته عن آلهته، وتيقَّن أنه يغير الملَّة، فقوله: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ﴾ تحصيل الحاصل، وأنه محال.

---

(١) «المعارف» ص ٣١.

(٢) «المعرب» ص ١٧١.

(٣) أخرجه الطبري في تاريخه ١/ ٢٤٤ عن السدي.

(٤) «الطبقات الكبرى» ١/ ٤٧.

فإن قيل: فقد علم الخليل أنَّ أباه لا يسلم وقد قال لإبراهيم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي: لأشتمنَّك ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾[مريم: ٤٦] أي: حيناً، ومنه الملوان الليل والنهار.

فالجواب من وجهين: أحدهما: أنَّ أباه كان قد وعد أن يؤمن، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] الآية.

والثاني: أنه أراد تركيب الحجَّة عليه ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] ثم قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [مريم: ٤٧] ومعنى «سلام»: أي: أقول لك ما أسلم فيه، وسوف أستغفر، أي: ما أيأس من إسلامك، وهذا من باب الشفقة والحنوِّ عليه.

وقال البخاري بإسناده عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَلْقَى إبراهيمُ أَبَاه آزرَ يومَ القيامةِ، وعلى وَجهِ آزَرَ قَتَرةٌ وغَبَرةٌ، فيقول له إبراهيمُ: أَلَم أقُل لكَ لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليومَ لا أعصيكَ، فيقول إبراهيم: يا ربِّ، إنك وَعَدتَني أنْ لا تُخزيني يومَ يُبعَثون، وأيُّ خِزيٍ أَخزى مِن أبي الأبعدِ؟! فيقولُ الله: إنِّي حرَّمتُ الجنَّة على الكافِرينَ. ثم يقال: يا إبراهيمُ، ما تَحْتَ رجلَيْكَ؟ فينظرُ فإذا هو بِذِيخٍ عظيمٍ، فيُؤخذُ بقَوائِمه فيُلقَى في النَّارِ» انفرد بإخراجه البخاري[1]، والذيخ: ذكر الضباع الكثير الشعر.

فصل في هجرته إلى الشام

قال هشام: لما اعتزل إبراهيم أباه وقومه قطع الفرات، ودخل إلى الشام، ووصل دمشق ومعه سارَة ولوطٌ ابن أخيه وجماعة ممَّن آمن به، وكان له على ما ذكر ابن الكلبي أربع مئة عبد يجاهدون بالعصيِّ[2]، وكان بدمشق جبَّار فخرج إليه، فحاربه فقتله إبراهيم.

(١) صحيح البخاري (٣٣٥٠).

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ١/ ٤٧.

وقال مقاتل: لم يحارب[١] من الأنبياء إلا خمسة أولهم إبراهيم، وهو أوَّل من حارب بالعصيِّ، ثم موسى وداود وسليمان ومحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين.

فصل في ذكر قدومه مصر، والجبَّار وسارَة

قال علماء السِّير: أقام إبراهيم عليه السَّلام بالشَّام مدَّة، فقُحط الشام، فسار إلى مصر ومعه سارَة ولوط، وكان بها فرعون، وهو أوَّل الفراعنة ـ عاش دهراً طويلاً ـ.

واختلفوا فيه: قال قوم: هو سنان بن علوان، وقيل: سنان بن الأهبوب أخو الضحَّاك، وهو الذي بعثه إلى مصر، فأقاموا بها.

وكانت سارة من أجمل النساء، فوصفت لفرعون فأرسل يطلبها.

قال أحمد بإسناده عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لم يَكْذِبْ إبراهيمُ قطُّ إلا ثلاث كذباتٍ: ثِنتَينِ في ذاتِ اللهِ، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وواحدةً في شأنِ سارَة، فإنَّه قدِم أرضَ جبَّار، فقيل له: دَخَل إبراهيمُ اللَّيلة بامرأةٍ من أحسن النساءِ، فأرسل إليه الجبَّار: من هذه معك؟ فقال: أختي، قال: فأرسِلْ بها إليَّ، فأرسلها إليه، وقال لها: لا تُكذِّبيني، فإنِّي قد قُلتُ إنَّك أختي، فما على وجهِ الأرض مؤمن غيري وغيرُك. فلمَّا دَخَلتْ إليه قامَ إليها فأقبلَت تصلِّي وتقولُ: اللهمَّ إن كنت تعلم أنِّي آمنتُ بكَ وبرسولِك وأحصَنتُ فرجِي، إلّا على زَوجِي، فلا تُسلِّط عليَّ الكافر، قال فَغُطَّ حتى رَكَضَ برِجلَيْه، فقالت: اللهمَّ إن يَمُت فيقولوا: هي قتَلتْه، قال: فأُرْسِل، فقام إليها، فقالت مثلَ قولها، فَغُطَّ فدعَتْ فَأُفاقَ، فعلَ ذلك أربعاً، فلمَّا أفَاقَ في الرَّابعةِ قال: ما بَعثْتُم إليَّ إلَّا شَيطَانةً، رُدُّوها إلى إبراهيمَ وأَعطُوها خادِماً، فأَخدَمُوها هاجرَ. فلمَّا جاءَت إلى إبراهيمَ قالت: أشعَرْتَ أَنَّ اللهَ ردَّ كيدَ الفاجِرِ وأخدَمَ وليدةً». أخرجاه في «الصحيحين»[٢]، وهو حديث طويل، وقد روي بروايات كثيرة.

---

(١) في (ل): يقاتل.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٩٢٤١)، والبخاري (٢٢١٧)، ومسلم (٢٣٧١).

وقد أخرجه الحميدي، وقال فيه: «وكانَت سارَةُ من أحسنِ الناسِ[١]، وقال إبراهيمُ: إن يَعلمْ هذا الجبَّارُ أنَّك امرأَتي يغلبْني عليكِ. وقامَ إبراهيم إلى الصَّلاةِ، فلمَّا دخَلَت عليهِ لم يَتمالَك أن بَسَطَ يَدَه إليها، فقُبِضَت يدُه قَبضاً شديداً، فقالَ لها: ادْعِي الله أن يُطلِقَ يدِي ولا أضرُّكِ، ففعلت، فعادَ حتى فعلَتْ ذلك مِراراً، فدَعَا الذي جاءَ بها وقَالَ: إنَّما جئتَني بشيطانٍ، فأخرجْها من أرْضِي... وفيه: فلمَّا عادَتْ قال لها إبراهيمُ: مَهْيَمْ؟ قالت: خير، كفَّ الله يَدَ الفاجِر وأخدَمَ خادِماً» فقال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماءِ السَّماء[٢].

الكلام على الحديث

وقد أنكر جماعة من العلماء الكذب على إبراهيم وقالوا: الكذب قبيحٌ على غير الأنبياء، فكيف على أصل الأنبياء؟

والجواب: إن هذا من المعاريض المندوب إلى مثلها، ولو بحث عمَّا قال إبراهيم لكان صدقاً.

فإن قيل: فما معنى امتناع الجبَّار عنها بقوله: هي أختي، ولو قال: زوجتي كان أمنع لها؟

فالجواب: إن من شرع ذلك الجبار أن من كان له أخت هي زوجته، وهو أحق بها من غيره، ولا تؤخذ منه قهراً، فقال ذلك إبراهيم خوفاً على نفسه وظنّاً منه أن ينجيه ذلك.

وقوله: «مَهْيَمْ» قال الجوهري: مَهْيَم ـ بفتح الميم الأولى وإسكان الثانية ـ كلمة يستفهم بها، ومعناها: ما حالك وما شأنك[٣]؟

وقول أبي هريرة: هي أمُّكم يا بني ماء السماء، يشير إلى العرب، لأنَّ أمَّهم هاجر، وهم يسكنون البوادي، ويعيشون بماء المطر.

---

(١) في (ب): «النساء».

(٢) «الجمع بين الصحيحين» (٢٤١٥)، وهذه رواية مسلم (٢٣٧١).

(٣) «الصحاح»: (مهيم).

وقال ابن إسحاق: كانت هاجر وصيفة فوهبتها سارَة لإبراهيم وقالت: خذها، لعلَّ الله أن يرزقك منها ولداً. وكانت سارَة عاقراً.

واختلفوا في هاجر: فقال مقاتل: كانت من ولد هود عليه السلام، وقال الضَّحاك: كانت بنت ملك مصر، وكان الملك ساكناً بمَنْف فغلبه ملك آخر، وقيل: إنما غلبه فرعون فقتله وسبى ابنته فاسترقّها ووهبها لسارة.

وقال مسلم بإسناده عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سَتُفتَحُ أرضٌ يُذكَرُ فيها القِيرَاطُ فاستَوصُوا بأهلها خَيراً، فإنَّ لهُم ذمَّةً ورحِماً». انفرد بإخراجه مسلم[(١)]. وفي رواية: «سَتُفتَحُ مِصْر[(٢)]».

وعامَّة العلماء على أنّه ﷺ أراد هاجر أمَّ إسماعيل لأنها أمّ العرب، وكانت من مصر[(٣)].

وقال الشعبي: أراد مارية القبطية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وعامَّة الرواة على الأوَّل.

قلت: ويمكن الجمع بين القولين لأنَّ الأصل في ذلك أمّ إسماعيل، ثم أكدت الرحم أمّ إبراهيم عليه السلام.

فصل في عوده إلى الشام ونزوله، وذكر ما سنَّ من السّنن

قال وهب: لما خرج الخليل من مصر نزل فلسطين بمكان يقال له السبع ـ بإسكان الباء ـ واتخذ به مسجداً، ونزل لوط بالمؤتفكة، وهي من السبع على يوم وليلة، فبعث الله لوطاً نبيّاً.

وأقام إبراهيم بالسبع، واحتفر بئراً فكانت غنمه ترِدها، ثم إنَّ أهلها آذوه فخرجَ منها، فنزل بناحية فلسطين، فغار ماءُ تلك البئر، فندم أهل ذلك المكان على ما فعلوا به وقالوا: أخرجنا الشيخ الصالح من بين أظهرنا. ثم مضوا إليه واسترضوه وسألوه

(١) صحيح مسلم (٢٥٤٣) (٢٢٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.
(٢) صحيح مسلم (٢٥٤٣) (٢٢٧).
(٣) انظر «شرح مسلم» ١٦/ ٩٧.

الرُّجوع فقال: ما أنا براجع إلى مكان أخرجت منه، فقالوا: قد نضب ماء البئر، فأعطاهم سبعة أعنز من غنمه وقال: أوردوها البئر ولا تغرف منها حائض ولا جنب، فأوردوها فظهر الماء، فيقال: إنما سمِّي ذلك المكان سبع لهذا.

وقال مقاتل: لما خرج إبراهيم من مصر نزل جبل لبنان وأقامَ به مدَّة، فاشتاق إلى الأرض المقدَّسَة، فأوحى الله إليه: اصعد على رأس لبنان وانظر أي مكان اخترتَ من الأرض فهو مقدَّس، فنظر فانتهى بصره إلى دمشق والشام والأردن وفلسطين، فقال الله تعالى: هذه الأماكن كلّها مقدَّسة.

والأصحُّ أنَّ الأرض المقدَّسة أرض فلسطين من الأردن إلى البحر.

وقال مجاهد: اختار فلسطين فنزل بها، وبسط الله له في الرزق، فكان يسمى الشيخ الصالح، وهو أوّل من أضاف الضيف وثَرَد الثريد وأطعم المساكين، وقصَّ شاربه واستحدَّ، واختتن، وقلَّم أظفاره، واستاك، وفرق شعره، وتمضمض، واستنشق، واستنثر، واستنجى بالماء.

وهو أوَّل من شاب وهو ابن خمسين ومئة سنة، وأوَّل من رأى الشيب في الدنيا.

قال مجاهد: رأى في وجهه طاقة بيضاء فقال: يا رب ما هذا؟ فقال: نذير ونور ووقار، فقال: يا ربِّ زدني وقاراً، فشاب رأسه في الحال.

وهو أوَّل من خطب على المنبر، ولبس السَّراويل، واختتن.

قال أحمد بإسناده عن الزُّهري عن أبي الزِّناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «اختَتَنَ إبراهيمُ بالقدُومِ». أخرجاه في «الصحيحين»[١].

قال أبو الزناد: القدوم بالتخفيف اسم موضع بالشّام، وكذا قال الجوهري[٢].

وقال ابن السكيت: ولا تقل قدّوم بالتشديد[٣]، والعامَّة تقوله.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨٢٨١)، والبخاري (٦٢٩٨)، ومسلم (٢٣٧٠) من طرق متعددة، ولم يذكر فيها الزهري، أما رواية الزهري فقد أوردها الدارقطني في «العلل» ٧/ ٢٨١ وقال: رواه أبو قرة موسى بن طارق عن ابن جريج عن يحيى بن سعيد، عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة.

(٢) «الصحاح»: (قدم).

(٣) «إصلاح المنطق» ص٢٠٥.

وقال ابن عباس: اختتن وهو ابن عشرين ومئة سنة، وقيل: ابن ثمانين.

فصل في حمل إبراهيم إسماعيل وأمَّه إلى مكة على البراق

قال ابن إسحاق: إسماعيل أكبر ولد إبراهيم، ولما دفعت سارَة هاجر إلى الخليل أولدها إسماعيل، فغارت سارَة وحلفت أن لا تساكنها، ولتقطعنَّ بَضْعة منها، فقال لها الخليل: اخفضيها، فخفضتها، أي: ختنتها.

وقال السُّدي: لما حلفت سارَة أن لا تساكنها في بلد حملها إبراهيم وابنها إلى مكة على البراق[1]، وقد ذكر البخاري القصَّة فقال: حدثنا عبد الله بن محمد عن أيُّوب السَّختياني وكثير بن المطلب ابن أبي وَدَاعة ـ يزيد أحدهما على الآخر ـ عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أوَّل ما اتخذ النساء المِنْطَقَ من قِبَلِ أمِّ إسماعيل، اتخذته لتعفِّي أثرَها على سارَة، فجاء بها إبراهيم وبابنه إسماعيل، وهي ترضعه، حتى وَضعَها عند البيتِ عند دوحةٍ فوقَ زمزمَ في أعلى المسجدِ، وليس بمكَّة يومئذٍ أحدٌ ولا ماء، وَوَضع عندهما جِرَاباً فيه تمرٌ، وسِقاء فيه ماء، ثم قفّى إبراهيم منطلقاً، فتبعته هاجر فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتدعنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيسٌ ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وهو لا يلتفتُ إليها، فقالت: آللهُ أمَرَك بهذا؟ قال: نَعَم، قالت: إذاً لا يُضَيِّعنا.

ثم رجعت وانطَلَق إبراهيم نحو الشَّام، حتى إذا كانَ عند الثَّنية حيثُ لا تراه ولا يَراها استَقبَلَ البيتَ بوجهِهِ، ثم دعا بهؤلاءِ الدَّعواتِ، ورفع يده وقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ إلى قوله ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وجعلت أمُّ إسماعيل تُرضع ابنها وتشربُ من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السِّقاء عطِشَت وعطِشَ ابنُها، وجعلت تنظرُ إليه يتلبَّط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصَّفا أقربَ جبل في الأرض يَليها، فقامَت عليه ثم استقبلت الواديَ تنظرُ هل تَرى أحداً، فلم تَرَ أحداً، فهبَطت من الصَّفا، حتى إذا بَلَغت الوادي رَفَعت طَرَف دِرْعِها ثم سعتْ سعي الإنسان المجهود حتى جاوَزَت الواديَ، ثم أتَت المَرْوَة

(١) انظر تاريخ الطبري ١/ ٢٥٣ـ٢٥٤، والمنتظم ١/ ٢٦٥.

فقامت عليها، ونظرت فلم تَرَ أحداً ـ فعلت ذلك سبع مرَّات.

قال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «فلِذلِكَ سَعَى النَّاسُ بينَهما؛ فلمَّا أَشْرَفَت على المَرْوَةِ سمِعَت صَوْتاً فَقالَت: صَهٍ ـ تُريدُ نَفْسَها ـ ثم تَسَمَّعت فسمعت أيضاً فقالت: قد أَسْمَعْتَ لو كان عندك غُوَاثٌ، فإذا هي بالملك عند موضعِ زَمزَمَ، فبَحَث بجناحِه ـ أو بعقِبِه ـ حتى ظهرَ الماءُ، فجعلت تُحَوِّضُهُ، وجعلت تقول بيدها كذا، وجعلت تغرفُ من الماء في سِقائها وهو يَفُورُ بعدما تَغْرِفُ».

قال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «يَرحَمُ الله أمَّ إسماعيلَ لو تَركَتْ زَمزَمَ لكانَتْ عَيْناً مَعِيناً». وفي رواية: «لو لم تَغْرِفْ مِنَ الماءِ». قال: فشربَتْ وأرْضَعَت ولَدَها فقال لها المَلَك: لا تَخافُوا الضَّيعَةَ فإنَّ لله ها هُنا بيتاً يَبْنِيه هذا الغُلامُ وأبُوه، وإنَّ الله لا يُضيِّع أهلَه. وكان البيتُ مُرتَفِعاً من الأرضِ كالرَّابيَة، وتأتيه السُّيول فتأخُذُ عنه يميناً وشِمالاً، فكانت كذلك حتى مرَّت بهم رُفقة من جُرْهُم مُقبِلين من طريق كَدَاء، فنزلوا أسفَلَ مكَّة، فرأوا طائراً عائفاً فقالوا: إنَّ هذا طائرٌ ليَدُورُ على ماءٍ، لَعَهْدُنا بهذا الوادي وما فيهِ ماء. فأرسلوا جَرِيّاً أو جَرِيَّيْن فإذا هم بالماءِ، فرَجَعوا وأخبَرُوهم، فأقبلُوا، وأمُّ إسماعيلَ عند الماءِ، فقالوا: أتَأذَنينَ لنا أن ننزِلَ عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكُم في الماءِ. قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «فألْفَى ذلك أمَّ إسماعيل وهي تحبُّ الأُنْسَ» فنزلُوا وأرسَلُوا إلى أهالِيهم فجَاؤوا، فنزلُوا معهم، حتى إذا كان بها أهلُ أبياتٍ منهم وشبَّ الغلامُ وتعلَّم منهم العربيَّة وأنْفَسَهم وأعجَبَهم حين شبَّ، فلمَّا أدرك زوَّجوه امرأة منهم.

وماتت أمُّ إسماعيل فجاء إبراهيم بعدما تزوَّج إسماعيل يطالعُ تركَتَه، فلم يجد إسماعيلَ، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يَبتغي لنا ـ أو يصيد لنا ـ ثمَّ سألها عن عيشِهم وهيئَتهم فقالت: نحن بشرٌ، في ضيقٍ وشدَّة، وشَكَت إليه. فقال: إذا جاء زوجُك فاقْرَئي عليه السَّلام وقولي له يُغيِّرْ عتبةَ بابه. فلمَّا رجع إسماعيلُ كأنَّه آنَسَ شيئاً فقال: هل جاءكم من أَحَد؟ قالت: نَعَم شيخٌ من صفَتِه كذا وكذا، فسألني عنك فأخبرتُه، وسألني كيف عيشُنا، فأخبرته أنّا في جَهْد وشدَّة، قال: فهل أوصاكِ بشيءٍ؟ قالت:

نعم، أمرني أنْ أقرأ عليك السَّلام ويقول لك: غيِّر عتبةَ بابكَ، فقال: ذاك أبي وقد أمرَني أن أُفارقَكِ، فالْحقِي بأهلِكِ، فطلَّقها، وتزوَّج منهم أخرى. فلبِثَ عنه إبراهيم ما شاء الله، ثمَّ أتاهُم فلم يجدْه، فسأل عنه امرأتَه فقالت: خرج يَبتغي لنا، فسألَها عن عيشِهم وهيئَتِهم فقالت: نحن بخير وسَعَة، وأثنَتْ على الله، فقال: ما طعامُكم؟ قالت: اللَّحمُ والماءُ ـ وفي رواية: ما طعامُكُم قالت: اللَّحم، قال: وما شَرَابُكم؟ قالت: الماءُ، فقال اللهمَّ باركْ لهم في اللَّحم والماءِ.

قال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «ولم يَكُن لهم يومئِذٍ حَبٌّ، ولو كان لدَعا لهمْ فيهِ بالبَركَةِ». قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكَّة إلَّا لم يوافقاه ـ وفي رواية: فقال لها: إذا جَاء زوجُكِ فاقْرَئي عليه السَّلام ومُريه أن يُثبِتَ عَتَبَةَ بابهِ ـ فلمَّا جاء إسماعيل قال: هل جاءَكُم من أحدٍ؟ قالت: نَعَم، شيخٌ حسنُ الهيئةِ، وأَثْنَتْ عليه، وأخبرَتْه الخَبرَ، فقال: هل أوصاكِ بشيءٍ؟ قالت: نَعَم، يَقرَأ عليك السَّلام ويأمُرُك أن تُثبِتَ عتبةَ بابك، فقال: ذاك أبي، وأنتِ العتبةُ، أمرني أن أمسِكَكِ.

ثمَّ لبثَ عنهم ما شاءَ اللهُ، ثم أتاهم وإسماعيلُ يَبري نبلاً تحتَ دوحةٍ قريباً من زَمزَم، فلمَّا رآهُ قام إليه وصنَعا كما يَصنَعُ الوالدُ بالولدِ والولدُ بالوالدِ. ثم قال: يا إسماعيلُ إن الله قد أمرني بأمرٍ، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: أوتعينني؟ قال: نعم، قال: فإن الله أمرني أن أَبْنيَ ها هُنا بيتاً، وأشار إلى أَكَمَةٍ مرتفعةٍ على ما حَوْلها. فعندَ ذلكَ رفَعَا القواعِدَ من البيتِ، فجعل إسماعيلُ يأتي بالحجارَةِ وإبراهيمُ يَبْني حتى إذا ارتفَعَ البناءُ جاء بهذا الحَجَرِ فوضَعَه، وقام عليه يَبْني، وإسماعيلُ يُناوله الحجارةَ وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[البقرة:١٢٧] الآية. وجَعَلا يَبنِيَان حتى يَدُورا حولَ البيتِ. وهما يقولان الآية[١].

وفي رواية: أن إبراهيم لمّا مضى إلى الشّام رجعت إلى الصبيِّ فإذا هو كأنَّه يَنْشَغُ للموتِ، فلم تُقِرَّها نفسُها، فإذا هي بصوتٍ فقالت: أغثْ إن كان عندك غَوْثٌ أو خير، فإذا جبريلُ، فقالَ بعقِبِه على الأرضِ كذا، فانبثَقَ الماءُ، فدَهَشَتْ فجَعَلَت تحفِنُ أو تَحفِزُ[٢].

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٦٤)، ومعنى: «يتلبط»: يتمرغ ويضرب بنفسه الأرض. «أنفسهم» كثرت رغبتهم فيه.

(٢) صحيح البخاري (٣٣٦٥) «ينشغ»: يشهق ويعلو صوته وينخفض كالذي ينازع.

وفي رواية: فقال رسول الله ﷺ: «يَرْحَمُ اللهُ أمَّ إسماعيلَ لولا أنَّها عَجِلَت لكانَتْ زَمْزَمُ عيناً معيناً»(١).

وفي رواية أن زوجة إسماعيل الثانية قالت لإبراهيم: انزل حتى أغسل رأسك فقد شعث، فلم تزل به حتى جاءته بالمقام فوضعته عند شقِّه الأيمن، فوضع قدمه عليه، فبقي أثر القدم فيه، فغسلت شق رأسه الأيمن، ثمَّ حوَّلت المقام إلى شقِّه الأيسر فغسلته.

وفي رواية: فقال لها: هل عندك ضيافة؟ قالت: نعم، فجاءته باللبن واللحم، فدعا فيهما بالبركة، وقال لها: إذا جاء زوجك فقولي له: قد استقامت عتبة بابك، ودعا لها. قال ابن عباس: ولو كان هناك برٌّ أو شعيرٌ لدعا لهم، فكانوا أكثر الناس خبزاً وتمراً.

وفي رواية: أن هاجر عملت عريشاً موضع البيت.

انفرد بإخراج هذا الحديث البخاري، ورواه بروايات كثيرة مختلفة قد أتينا على معظمها، وعامَّة ألفاظه موقوفة على ابن عباس، والمرفوع منه ما حكيناه عن رسول الله ﷺ، وقد أخرجه الحميدي برواياته(٢).

تفسير غريبه: «الدَّوحة»: الشجرة العظيمة أيُّ شجرة كانت. و«الدِّرع»: القميص. و«المجهود»: الذي نالته مشقَّة. و«صه»: اسكت. وقال الجوهري: صه: كلمة بنيت على السكون، وهي اسم سمِّي به الفعل، ومعناه: اسكت(٣). و«الغواث» ـ بضم الغين ـ الغياث. و«جرهم»: اسم قبيلة من العرب العاربة. وقال الجوهري: جرهم حيّ من اليمن، وهم أصهار إسماعيل عليه السلام(٤).

وفي مكة ثلاثة أماكن يقال لها: كداء، فالأولى كَدَاء ـ بالفتح والمدِّ ـ بأعلى مكة على طريق العمرة. وكدى ـ مقصور ـ مكان بأسفلها، وكُديّ مصغّر موضع على طريق اليمن. ولم يذكر الجوهري منها شيئاً، بل قال: الكدية الأرض الصلبة وجمعها كدى(٥). و«الأكمة»: المكان المرتفع. انتهى تفسير غريب الحديث.

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٦٢).

(٢) «الجمع بين الصحيحين» (١١١١).

(٣) «الصحاح»: (صه).

(٤) «الصحاح»: (جرهم).

(٥) «الصحاح»: (كدي).

وذكر ابن إسحاق والسُّدي والكلبي وغيرهم: أنَّ الله تعالى لما أهلك قومَ عاد ـ وهم من العمالقة ـ خرج من بقي من العرب ومنهم من أرض اليمن، وفيهم جرهم وعليهم السميدع بن هوبر بن لاوي بن قنطورا بن كركر بن حَيدان[1] بن عمليق، فنزلوا تهامة، وبعثوا روَّادهم يطلبون الماء، فأشرفوا على وادي مكة فنظروا إلى الطير ترتفع وتنخفض فاستبطنوا الوادي، فنظروا إلى عريش أمِّ إسماعيل على الربوة الحمراء، وفيه هاجر وإسماعيل، وقد زمَّت حول الماء بأحجار، ومنعته من الجريان. فسلَّم الرُّوَّاد عليها، واستأذنوها في النزول عندها، ويشربون من الماء، فأذنت لهم ورحَّبت بهم، وحصل لها الأنس، فعادوا إلى من وراءهم فأخبروهم، فجاؤوا ونزلوا، فأضاء لهم نور النبوَّة من العريش. فلمَّا ترعرع إسماعيل ألهمه الله الكلامَ بالعربية على خلاف لغة أبيه، ووافق القومَ في لغتهم، وتزوَّج منهم امرأةً يقال لها: الجذاء ابنة سعد العملاقي، وهذه الجذاء هي التي سألها إبراهيم عن عيشهم.

وقال وهب: ولما جاءها سلَّم عليها فلم تردَّ عليه السَّلام، وسألها منزلاً فقالت: لاها الله ذا ـ وسنذكر هذه اللفظة فيما بعد ـ وهي التي أمره إبراهيم بطلاقها، وقال لها إسماعيل: الحقي بأهلك.

قال وهب: وكانت هاجر باقيةً لما جاء الخليل يطلب ولده، وهذا قول من سمينا.

وقال مقاتل وابن الكلبي: كان على جرهم الحارث بن مضاض بن عمرو بن سعيد ابن الرقيب بن ظالم، فاستوطنوا مكة، وتزوَّج إسماعيل المرأة الثانية منهم، واسمها سامة بنت مهلهل بن سعد بن عوف. واستأذن إبراهيم سارَة في زيارة إسماعيل فأَذِنت له، وشرطت عليه أن لا ينزل، فسار على البراق وقيل: على أتان، وكانت هاجر[2] قد ماتت ولها تسعون سنة، فدفنها إسماعيل في الحجر. ولما أثَّرت قدما إبراهيم في المقام قال لها: احتفظي به فسيكون له شأن بعد حين فذلك المقام.

---

(١) في (ب): «جندب».

(٢) في (ب): «سارة».

فصل في بناء البيت

واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أن الله تعالى بناه قبل خلق الدنيا لا ببناء أحد. فروى أبو صالح عن ابن عباس قال: كان العرش على الماء قبل خلق الأرض بألفي عام، فأرسل الله ريحاً فصفقت الماء فأبرزت عن خشفة كالقبَّة، وهي موضع البيت، فدحيت الأرض من تحتها.

وقال مجاهد: خلق الله موضع هذا البيت قبل خلق السماوات والأرض بألفي عام، وإنَّ قواعده لفي الأرض السابعة، وكان فيه قناديل من الياقوت، وهذا قول ابن عباس ومجاهد والسُّدي وغيرهم.

قال مقاتل: ولما حجَّ آدم تلقته الملائكة فقالت: يا آدم بَرَّ حجُّك، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام، فقال: اللهم اجعل له عماراً من ذرِّيتي، فقال الله: إني سآمُر نبيّاً من ذريّتك اسمه إبراهيم يعمره.

والثاني: أن الملائكة بنته لما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾[البقرة: ٣٠] فقال لهم الله تعالى: ابنوا لي في الأرض بيتاً وطوفوا حوله كما تطوفون حول عرشي، وقد ذكرناه، ثم بقي على حاله.

وقيل: إنه تشعّث فجدَّده آدم، وزاده شيث، وبقي إلى أيام الطوفان، فنسفه الغرق وبقي مكانه ربوة حمراء تأتيه السيول من كل مكان، ويأتيه المظلوم فيدعو عنده، حتى جدَّده إبراهيم.

وحكى ابن سعد عن الواقدي قال: كان لإبراهيم يوم بناه مئة سنة ولإسماعيل ثلاثون سنة[1].

وروي عن عليٍّ كرم الله وجهه أنه قال: لما أمر إبراهيم ببناء البيت لم يدر كيف يصنع، وضاق به ذرعاً، فأرسل الله الريح الخَجُوج، وهي السكينة، ولها رأسان

(١) «الطبقات الكبرى»: ١/ ٥٢، وفي (ب): «ثمانون سنة».

فتطوَّقت موضع البيت كطي الجحفة، وهي على مثال الحية.

وعن علي أيضاً قال: جاءت غمامة وناداه منها مثل رأس الإنسان: يا إبراهيم، علِّم على ظلِّي ولا تزد ولا تنقص.

وقال مقاتل: أيدهما الله بسبعة أملاك حنفاء يعينونهما على بنائه.

وقال ابن عباس: فبناه من خمسة أجبل: طور سيناء وطور زِيتا ـ جبل بيت المقدس ـ وحِراء وأبي قُبيس والجوديِّ، وقيل: ولبنان. وجعل طولَه ثلاثين ذراعاً، وأدخل الحِجر فيه سبعة أذرع. ولما كمل ولم يبق إلا موضع الحجَر قال لإسماعيل: اذهب فأتني بحجر، فذهب ليأتيه فناداه أبو قُبيس: يا إبراهيم إن لك عندي وديعة. يعني الحَجَر الأسود كان قد نزل مع آدم من الجنة، فلمَّا كان الطوفان أودعه جبريل فيه، فلمَّا ذهب إسماعيل ليأتيه بحَجَر جاءه جبريل بالحَجَر من أبي قُبيس فوضعه مكانه، وجاء إسماعيل فقال: يا أبةِ، مَن جاءك بهذا الحَجَر؟ فقال: من لم يَكِلْني[1] على بنائك، أتاني به جبريل من أبي قبيس.

وقال الترمذي: بإسناده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نَزَل الحَجَرُ الأسودُ من الجنَّةِ وهو أشدُّ بياضاً من اللَّبنِ، فسَوَّدتْهُ خَطايا بَنِي آدَمَ»[2].

فإن قيل: فما الفائدة في بناء البيت من هذه الأجبل البعيدة، وجبال مكة أقرب، مثل أبي قُبيس وحِراء وغيرهما كعرفاتٍ وجبال مِنى؟

فالجواب من وجوه: أحدها: لتشرف هذه الجبال على غيرها. والثاني: ليظهر فضلها. والثالث: أنَّ معناه أن من حجَّ هذا البيت وطاف به وصلى عنده كُتبَ له من الثواب ما لو وزنت معه هذه الجبال لرجح عليها. والرابع: لتشهد لمن حَجَّه كما يشهد الحجر الأسود لمن استلمه.

وقال وهب: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥] الآيات.

---

(١) في تفسير الطبري ٣/ ٧٠، وتاريخه ١/ ٢٥١، والمنتظم ١/ ٢٧٠: من لم يتكل.

(٢) أخرجه الترمذي (٨٧٧)، وهو عند أحمد في «مسنده» (٢٧٩٥).

فإن قيل: فقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] ولم يكن هناك بيت.

فالجواب من وجهين، أحدهما: أن معناه عند بيتك الذي كان هاهنا وهذه آثاره. والثاني: عند بيتك الذي قضي في سابق علمك أنني أجدِّده هاهنا.

فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾[آل عمران: ٩٦].

فالجواب: إنَّ معناه أوَّل بيت وضع للعبادة، ولم يكن قبله بيت يُعبد الله فيه. قال أحمد بإسناده عن أنس وأبي ذرٍّ. قال أبو ذرٍّ: سألت النبي ﷺ عن أوَّل مسجدٍ وُضع في الأرض فقال: «المسجِدُ الحَرَامُ» قلت: ثمَّ أيُّ؟ قال: «المسجِدُ الأقْصَى»، قلت: كم كان بينهما؟ قال: «أربعُونَ عَاماً»، انفرد بإخراجه مسلم(١).

❁ ❁ ❁ ❁

واشتقاق مكَّة من ملكَّ الفصيل ضرع أمِّه، إذا امتصَّ كلَّ ما فيه، وأشاروا إلى شدَّة الحرِّ بها وقلَّة مائها.

وأمَّا بكَّة فقد اختلفوا فيها، فقال ابن عباس: لأنها تبكُّ رقاب الجبابرة، وقال مجاهد: لازدحام الناس بها. وقال الضحَّاك: لأن الناس يتباكون فيها. وروي عنه أيضاً أنه قال: اسم البلد مكة، وبكة موضع البيت(٢).

وقيل: مكة وبكة واحد، لأن الباء تبدل من الميم، كقوله: ضربة لازب ولازم، ونحوه.

والآيات البيِّنات: مقام إبراهيم والحَجَر الأسود والركن وزمزم ونحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗا﴾[آل عمران: ٩٧] قال ابن خالويه: معناه أي: من دخله فأمِّنوه. وقال ابن عباس: أوَّل من عاذ بالحرم الحيتان الصغار من الكبار في أيام الطوفان.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٣٣٣)، ومسلم (٥٢٠) من حديث أبي ذر، ولم نقف عليه من حديث أنس.
(٢) انظر تفسير الطبري ٧/ ٢٤، وزاد المسير ١/ ٤٢٥.

obeikandl.com

واتفق العلماء على أن من جنى في الحرم أنه يقتصُّ منه لأنه هَتك حرمته، فيقام الحدُّ عليه عقوبة على الجناية.

واختلفوا فيمن جنى خارجاً منه ثم التجأ إليه:

قال ابن عمر وابن عباس والعبادلة: لا يقام عليه الحدُّ فيه، ولكن لا يبايع ولا يشارى حتى يخرج منه فيقام الحدُّ عليه، وبه أخذ أبو حنيفة.

وقال الشافعي ومالك: يقام عليه الحدُّ فيه قياساً على موارد الإجماع. وقد قتل النبيُّ ﷺ ابن خطل وهو متعلِّق بأستار الكعبة[١].

ولنا قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾[آل عمران: ٩٧] وقياسه على موارد الإجماع لا يصحُّ، لأنه هناك هتك حرمة الحرم بخلاف مانحن فيه. وأمَّا ابن خطل فإنه قتل لكفره، وكان النبيُّ ﷺ قد أهدر دمه.

فصل في فضائل مكة

قال أحمد بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ هذا البَلَد حرامٌ حرَّمَه الله يومَ خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ، فهو حرامٌ بحُرمةِ الله إلى يوم القيامةِ، وأنَّه لا يَحِلُّ القِتَالُ فيه لأحدٍ قَبلِي، ولم يَحِلَّ لي إلَّا ساعةً مِن نَهارٍ، لا يُعضَدُ شوكهُ، ولا يُنفَّر صيدُهُ، ولا تُلتَقَطُ لُقَطَتُه إلَّا من عرَّفها، ولا يُختَلَى خَلاه». فقال العباس: يا رسول الله، إلَّا الإذْخِرَ، فإنَّه لقينهم وبيوتهم، فقال: «إلَّا الإذْخِر».

وفي رواية: «لا يُعْضَدُ عِضَاهُها، ولا تَحلُّ لُقَطَتُها إلَّا لمنشِدٍ» فقال العباس: إلَّا الإذْخِرَ، فإنَّه لصَاغتِنا وسُقُوفِ بيوتِنا. أخرجاه في «الصحيحين[٢]».

وعضد[٣] الشجرة أي: قطعها، ذكره الجوهري، والعِضاه شجر له شوك كالطَّلح

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٤٦)، ومسلم (١٣٥٧) من حديث أنس رضي الله عنه، وانظر المغني لابن قدامة ١٢/ ٤٠٩-٤١٣.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٥٣)، والبخاري (١٣٤٩)، ومسلم (١٣٥٣)، أما الرواية الثانية فهي روايتان جمع بينهما المصنف وهما عند البخاري (١٣٤٩)، و(٢٤٣٣) وانظر «الجمع بين الصحيحين» (٩٩٧).

(٣) في (ب): وأعضد، وفي (ل): واعتضدت، والمثبت من (ط) و«الصحاح»: (عضد).

وغيره.

وقال العباس: قال ذلك في يوم الفتح، وقيل: في حجَّة الوداع.

وقال أحمد بإسناده عن جابر بن عبد الله قال: نهى رسول الله ﷺ أن يحمل السّلاح بمكّة. انفرد بإخراجه مسلم(١).

وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيُحَجَّنَّ هذا البيتُ وليُعتَمَرنَّ بعد خُروجِ يأجوجَ ومأجوجَ»(٢).

حدَّثنا أبو طاهر الحَرِيمي بإسناده عن الزهري عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الرُّكنُ والمقامُ ياقوتتانِ من يواقيتِ الجنَّةِ طُمِس نُورُهما، ولولا ذلكَ لأضاءَتا ما بينَ المشرقِ والمغربِ»(٣).

وحدَّثنا غير واحد عن يحيى بن علي المدير بإسناده إلى ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ للهِ في كلِّ يومٍ وليلةٍ عشرينَ ومئةَ رحمة تَنزلُ على هذا البيتِ، فستُّونَ للطائفينَ، وأربعونَ للمصلِّينَ، وعشرونَ للنَّاظرينَ»(٤).

وروى ثابت عن أنس قال: رأيت في المقام أثر أصابع إبراهيم وعقبيه وأخمص قدميه، غير أنَّ مسح الناس بأيديهم أذهب ذلك(٥).

فصل في حدود الحرم

ذكر محمد بن إسحاق وغيره: أنَّ أوَّل من وضع أنصاب الحرم الملائكة، لما نذكر، ودثرت بالطوفان فجدَّدها إبراهيم عليه السَّلام، ثم قصيُّ بن كلاب، وبقيت على حالها إلى زمان المبعث، فقلعتها قريش.

قال أنس: فشقَّ ذلك على رسول الله ﷺ حيث هي آثار آبائه، فجاءه جبريل فقال:

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٢٣٣)، ومسلم (١٣٥٦).

(٢) صحيح البخاري (١٥٩٣).

(٣) وأخرجه أحمد في «مسنده» (٧٠٠٠) من حديث عبد الله بن عمرو، ولم نقف عليه من حديث ابن عمر.

(٤) وأخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٩٤٠)، وقال: هذا حديث لا يصح.

(٥) ذكر ابن حجر في فتح الباري ٨/ ١٦٩ أنه في موطأ ابن وهب عن يونس، عن ابن شهاب، عن أنس.

لا يشقَّ عليك فإنهم سيعيدونها. فرأى رجالٌ منهم في المنام قائلاً يقول: حرم الله أعزَّكم الله به، عمدتم إلى أنصابه فقلعتموها، الآن يتخطفكم الناس أو العرب، فأَعادوها، فجاءه جبريل فقال له رسول الله ﷺ: «هل أصابوا في وضعِها؟» قال: نعم، ما وضعوا منها نصباً إلَّا بيد ملك. قال أنس: فلمّا كان عام الفتح بعث رسول الله ﷺ تميم بن أسد فجدَّدها.

قال علماء السِّير: ثم جدَّدها عمر وعثمان، وبنو أميَّة: معاوية وعبد الملك بن مروان، وأوَّل من جدَّدها من بني العباس هارون، ثم ابنه المأمون. ثم الخلفاء[١].

وذكر الأزرقي في «كتاب مكة» عن جماعة من العلماء عن ابن عبّاس قال: هذا الحرم سابع سبعة إلى السّماء، وفي كل سماء حرم وبيت، وله طائفون يطوفون به، وسكّان من الملائكة، وكذا إلى الأرض السّابعة[٢].

وقال الأزرقي: حدّ الحرم من طَرَفُ المدينة دون التنعيم عند بيوت تعار على ثلاثة أميال من مكة، ومن طريق اليمن طَرَفُ أضاة على سبعة أميال من مكة، ومن طريق الطَّائف إلى بطن نَمِرة على أحد عشر ميلاً، ومن طَرَفِ العِرَاق إلى ثنيَّة خَلٍّ عشرة أميال، ومن طريق الجِعرَّانة في شعب آل عبد الله بن خالد بن أسيد على خمسة أميال، ومن طريق جُدَّة منقطع الأعشاش على عشرة أميال؛ فصارت الجملة ستة وأربعين ميلاً[٣].

وحكى صاحب «المحيط» عن الهندُواني[٤] أنه قال: حدُّه من قبل المشرق ستة أميال، ومن الجانب الثاني اثنا عشر ميلاً، ومن الجانب الثالث ثمانية عشر ميلاً، ومن الجانب الرَّابع أربعة وعشرون ميلاً. فصارت الجملة ستين ميلاً.

وهو وهمٌ من الهندُواني؛ وما ذكر الأزرقي أصحُّ، لأنه ذكر الحدود على ما شاهد

---

(١) انظر «المنتظم» ١/ ٢٧٠ـ٢٧١، وأخبار مكة للأزرقي ٢/ ١٢٧ـ١٢٨.

(٢) «أخبار مكة» ٢/ ١٢٥.

(٣) الذي في «أخبار مكة» ٢/ ١٣٠ـ١٣١ : بيوت غفار . . . ومن طريق الطائف على طريق عرفة من بطن نمرة على أحد عشر ميلاً، ومن طريق العراق على ثنية خل بالمقطع على سبعة أميال. وهو الصواب. وانظر شفاء الغرام ١/ ٥٥ـ٥٩.

(٤) هو محمد بن عبد الله، أبو جعفر الهندواني الحنفي، توفي سنة ٣٦٢هـ، العبر ١/ ١٥٢، وذكر قوله السرخسي في المبسوط ١٢/ ٤٥١.

وعاين، وما ذكره الهندُواني يدلُّ على أن الحرم يكون مربَّعاً، وليس كما ذكر، بل هو مختلف الحدود كما ذكرنا.

فإن قيل: فلمَ لم تكن حدود الحرم متساوية إلى مكة؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: رواه عطاء عن ابن عباس قال: لما أهبط الله آدم إلى الأرض أقام باكياً مستوحشاً فأهبط الله إليه البيت المعمور، وكان ياقوتة من يواقيت الجنَّة، فأضاءت منه الدُّنيا، فقال إبليس: حدث أمر، فأرسل الشياطين ليكشفوا له الخبر، فجاؤوا فوقفوا موضع الأعلام لم يتجاسروا أن يتعدَّونها، لأن نور البيت انتهى إلى موضع الأعلام، فلم يقدر أحد منهم أن يدنو منها، فنصبت الملائكة الأعلام، فلمَّا احتضر آدم أوصى شيثاً بتجديد الأعلام ونصبها.

والثاني: لأنَّ الخليل لما وضع الحجر الأسود في الركن أضاء منه نور وصل إلى أماكن الحدود، فجاءت الشياطين فوقفت عند الأعلام فبناها الخليل حاجزاً، رواه مجاهد عن ابن عباس.

والثالث: لأنَّ الملائكة لما بنت البيت في أوَّل الأمر نزل من السماء ملائكة ملؤوا مكان الحرم اليوم، فأمرهم الله أن ينصبوا الحدود حيث انتهوا إليه تعظيماً للحرم، قاله مقاتل[١].

فصل في قبلة كلِّ بلد

القبلة: الوجهة التي يتوجَّه إليها، يقال: من أين قِبلَتك؟ أي: من أين جهتك ووجهتك؟.

وروى عكرمة عن ابن عباس قال: الحرم قبلة أهل الأرض، والمسجد قبلة أهل مكة، والبيت قبلة أهل المسجد، وباب الكعبة قبلة البيت[٢].

وقال أرباب الهيئة: قِبلة أهل العِرَاق وخُراسَان والصِّين يسار الركن العراقي الذي

---

(١) نقل هذه الأقوال الصالحي في سبل الهدى والرشاد ١/ ٢٣٣ـ٢٣٤ عن المحب الطبري، وانظر المنتظم ١/ ٢٧١.

(٢) أخرجه البيهقي في سننه ٢/ ٩ مرفوعاً وضعفه، وانظر التلخيص الحبير ١/ ٢١٣، والدر المنثور ١/ ١٤٧.

فيه الحجر إلى قريب من باب البيت.

وقبلة أهل البَصرَة والأهوَاز وكَرمَان وسِجستَان وما والاها باب الكعبة والملتزم.

وقبلة أهل اليمن وإلى تخوم عدن ما بين الحجر الأسود إلى الركن اليماني.

وقبلة أهل مصر والمغرب من الركن اليماني إلى قريب من نصف البيت.

وقبلة أهل الشَّام والأردن وفلسطين وأهل الثُّغور من نصف البيت إلى الركن الشامي، وهو مسقط سهيل.

وقبلة أهل إرمِينِيَة وأَذرَبِيجَان والجزيرة والرُّوم من الركن الشامي إلى الميزاب.

وقبلة أهل المدينة الميزاب إلى آخر البيت.

قلت: وهذا على وجه التقريب لا على وجه التحقيق.

فصل في دلائل القبلة التي يتوصَّل بها المجتهد إلى جهتها

فمنها: الشمس، فإنها تطلع من المشرق عن يسار المصلي، وتارة عن يمينه، وتارة أمامه، وتارة خلفه، بحسب اختلاف الأقاليم والمطالع والمغارب والمنازل.

ومنها: القمر فإنَّه يبدو أوَّل ليلة من الشهر هلالاً عن يمين المصلي في المغرب، ثم يتأخَّر كل ليلة نحو المشرق منزلاً منزلاً، حتى يكون ليلة السابع وقت المغرب في القبلة مائلاً قليلاً إلى المغرب، وفي ليلة أربعة عشر يطلع من المشرق قبل غروب الشمس بدراً تامّاً، ويكون ليلة إحدى وعشرين في قبلة المصلي أو قريباً منها وقت الفجر، وليلة ثمان وعشرين يبدو عند الفجر من المشرق كالهلال، وتختلف مطالعه بحسب اختلاف منازله، وقد ذكرناها في صدر الكتاب[١].

ومنها: الجدْي، وهو من أوثق الأدلَّة على القبلة، وقد ذكرناه[٢]، وكذا سهيل.

ومنها: الرياح وهي كثيرة يستدل منها بأربع، تهبُّ من زوايا السَّماء: الجَنوب وتهبُّ من الزاوية التي بين المشرق والقبلة إلى مطلع سهيل، والشَّمال: وهي مقابلة

(١) انظر فصل في القمر.

(٢) انظر فصل في الكواكب.

الجنوب، وتهبُّ من بنات نعش إلى مشرق الشمس، والدَّبُور: وتهبُّ ما بين المغرب وسهيل[١]. وبين كلِّ ريحين ريح تسمَّى النَّكْباء لتنكبها عن طريق الرياح المعروفة.

وقال الجوهري: والنُّكْبُ في الرياح أربع: فَنكْباء الصَّبا والجنوب يسمَّى: الأرنب، ونَكْباء الصَّبا والشمال وتسمَّى: الصَّابية والنُّكَيباء، وإنما صغَّروها وهم يريدون تكبيرها لأنهم يستدبرونها جداً، ونَكْباء الشمال والدَّبُور وتسمَّى: الجربياء؛ ونَكْباء الجنوب والدَّبُور وتسمَّى: الهَيف[٢]. وأصل النكب: العدول والميل.

ومنها: المياه والأنهار العظام كدجلة والفرات وجيحون وسيحون والأردن ونحو ذلك، وكل هذا يجري إلى القبلة. وكذا الجبال والبحار يستدلُّ بها على القبلة.

إذا ثبت هذا قلنا: متى عرف الإنسان هذه الأدلَّة كان مجتهداً في أمر القبلة إذا خفيت عليه ولم يجد مخبراً فيصلي إلى جهة يؤديه اجتهاده إليها، وإن خفيت عليه الأدلَّة لغيم أو ظلمة ونحوها، فإنَّه يتحرَّى ويصلي إلى أيِّ جهة يغلب على ظنِّه أنَّها جهة القبلة، وصلاته تامَّة عندنا، وعند الشافعي لا تجزئه إلَّا إصابة العين لقوله تعالى: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾[البقرة: ١٤٤] ولنا أنه أتى بما في وسعه، وهو التوجُّه إلى جهة القبلة، وتكليف ما ليس في الوسع حرجٌ عظيم، وقد اجتهد فصار كالحاكم إذا خفي عليه نصٌّ. وأمَّا الآية فالمراد بها إذا كان حاضراً بمكَّة، أمَّا إذا كان غائباً فقبلته جهة الاجتهاد والتحري، وقد ذكرنا مسائل استقبال القبلة في كتب الفقه.

فصل في حجِّ إبراهيم وتعليم جبريل إيَّاه المناسك

روى مجاهد عن ابن عباس قال: لما تكامل بناء البيت أوحى الله إلى إبراهيم: أن أذِّن في الناس بالحجّ، فقال: يا ربِّ، ومن يبلِّغ صوتي؟ فقال الله: منك الأذان وعليَّ البلاغ. فقام على أبي قبيس فاستقبل اليمن ثمَّ المشرق ثم الشام ثم المغرب، ونادى: أيها النَّاس، إنَّ ربَّكم قد بنى بيتاً فحجُّوه[٣].

---

(١) انظر «الأزمنة والأمكنة» ٢/ ١٣٧.

(٢) انظر «الصحاح» (نكب).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٧/ ١٤٤. وانظر «زاد المسير» ٥/ ٢٤٣.

قال المفسرون: فأسمع مَنْ بين السماء والأرض ومَنْ في أصلاب الرِّجال وأرحام النِّساء؛ قال الضحَّاك: فأجابوه جميعاً: لبيك اللهمَّ لبيك، فمنهم من لبَّى مرَّة ومنهم من لبَّى مرتين وثلاثاً وأقل وأكثر، فحجُّوا على قدر ذلك، ومن لم يلبِّ لم يحج.

قال ابن عباس: فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ أي: مشاة ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾[الحجّ: ٢٧] أي: ركباناً قد ضمرهن السَّفر، والفجُّ العميق: البعيد[١].

وقال ابن أبي الدنيا بإسناده عن الزهري عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «جَاءَ جبريلُ عليه السَّلام إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السَّلام فأراهم الطَّواف، ثم خرج بهما إلى منى، فقال: صلِّيا ها هنا، وأقامَ بهما إلى اليومِ الثاني، فغدا بهما إلى عرفاتٍ فأنزَلَهُما حيثُ ينزلُ الناسُ اليومَ، وجمَعَ بهما بين الظهرِ والعصرِ، ثم وَقَف بهما وعلَّمهما المناسِكَ، فجعلَ إبراهيمُ يقول: عَرفتُ عَرفتُ فلذلك سُميت عرفاتٍ».

وقال مجاهد: قال إبراهيم: يا ربِّ، كيف أقول؟ فقيل له: اصعد على الجبل وناد: أيها النَّاس، أجيبوا ربَّكم لبيك اللهم لبيك، فقال ذلك في جميع الجهات، فهذا أصل التلبية[٢].

فإن قيل: فالنفس أبداً تتوق إلى مكة مع علمها بتحمُّل المشاق فما سببه؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: قول الخليل: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾[إبراهيم: ٣٧] أي: تشتاق وتحنُّ، ولو لم يقل ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ لحجَّه اليهود والنصارى.

والثاني: لأنَّ الله تعالى أخرج ذرِّيَّة آدم بأرض نَعمان، وهي أرض عرفة، وقد ذكرناه[٣]، فصار ذلك المكان وطناً، والنفس أبداً تنازع إلى حبِّ الوطن.

والثالث: لأنَّ الله سبحانه ينظر في ليلة النصف من شعبان إلى الكعبة فتحنُّ إليها

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٧/ ١٤٦.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٧/ ١٤٥.

(٣) انظر فصل: ومن الحوادث توبته.

قلوب الحاجِّ.

وقال مقاتل: حجَّ إبراهيم وإسماعيل ماشيين[١].

وقال ابن مسعود في تأويل قوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[الأعراف: ١٦] قال: هو طريق مكة، أمنعهم من الحج[٢].

حدَّثنا غير واحد عن أبي منصور القزَّاز بإسناده عن إسماعيل بن أبي خالد عن زاذان قال: مرض ابن عباس مرضاً شديداً فدعا ولده فجمعهم وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن حجَّ من مكة ماشياً حتى يَرجِعَ إلى مَكةَ كَتبَ اللهُ لهُ بكُلِّ خُطوَةٍ سَبع مئة حسنةٍ مِن حسناتِ الحَرَمِ. قيل لهُ: وما حسناتُ الحَرمِ؟ قال: بِكُلِّ حَسَنةٍ مئةُ ألفِ حسنةٍ»[٣].

وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الحَجُّ المبرُورُ ليسَ لَهُ جَزَاءٌ إلَّا الجنَّةُ، والعُمرَةُ إلى العُمرَةِ تُكفِّرُ مَا بَينَهما»[٤].

وقال أحمد بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن حَجَّ هَذا البَيتَ فلَم يَرفُثْ ولَم يَفسُق رَجَعَ كما وَلَدَته أُمُّه»[٥]. الحديثان في الصحيحين

فصل في صحف إبراهيم عليه السلام

حدثنا غير واحد عن أبي بكر محمد بن عبد الباقي البزَّاز بإسناده عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذرّ قال: قلت: يا رسول الله، كم كتاباً أنزل الله؟ فقال: «مئة كتاب وأربعة كتب، أنزلَ الله على آدم عشرين أو عشر صحائف، وعلى شيث خمسين صحيفة، وعلى خنوخ ثلاثين، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والقرآن».

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٧/ ١٤٦ عن مجاهد.

(٢) انظر «زاد المسير» ٣/ ١٧٦.

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١٦٩٢).

(٤) أخرجه أحمد (٧٣٥٤) والبخاري (١٧٧٣) ومسلم (١٣٤٩).

(٥) أخرجه أحمد (١٠٢٧٤) والبخاري (١٨٢٠) ومسلم (١٣٥٠).

وقد رواه ابن قتيبة فقال: أنزل الله على آدم عشر صحائف، وعلى إبراهيم عشرين[١].

قال أبو ذر: فقلت: يا رسول الله، ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: «كانت أمثالاً كلها: أيها الملك المسلَّط المبتلى المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكنِّي بعثتك لتردَّ عني دعوة المظلوم، فإني لا أردُّها وإن كانت من كافر. وكان فيها: وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات يناجي ربَّه، ساعةٌ يفكِّر فيها وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعةٌ يخلو فيها لحاجته من الحلال. وعلى العاقل أن لا يكون طاغياً إلَّا في ثلاث: تزوُّد لمعاد، ومرمَّة لمعاش، ولذَّة في غير مُحرَّم. وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه. ومن حسب كلامه من عمله قلَّ كلامه إلَّا فيما يعنيه. وسلام على من أكرم الضيف، ومن أهانه فهو في الدرك الأسفل من النار». قال أبو ذر: فلهذا كان إبراهيم لا يأكل إلَّا مع الضيف[٢].

وقال مقاتل: أنزل الله على إبراهيم الصحف وهو ابن خمس وسبعين سنة، وقيل: ابن ثمانين.

فصل في اتخاذ الله إياه خليلاً

قال أهل اللغة: الخليل الصديق، والخُلَّة الصداقة. قال الجوهري: الخُلَّةُ: الخليل، يستوي فيه المذكر والمؤنث، لأنه في الأصل مصدر[٣].

فإن قيل: فإذا كانت الخُلَّة عبارة عن الصداقة فهذا المعنى معدوم في حقِّ الله تعالى، قلنا: معنى الخُلَّة من إبراهيم المودَّة والطَّاعة لله والتقرُّب إليه بما يكون سبباً للزلفى، ومن الله تعالى بمعنى الإقبال عليه والإحسان إليه.

واختلفوا في سبب اتخاذ الله إيَّاهُ على أقوال:

---

(١) انظر «المعارف» ص ٣٢.

(٢) أخرجه ابن حبان مطولاً (٣٦١)، وابن الجوزي في «المنتظم» ١/ ٢٧٢ـ٢٧٣، وإسناده ضعيف جداً.

(٣) انظر «الصحاح»: (خلل).

أحدها: لإطعامه الطعام ولم يكن يأكل إلَّا مع الضيف، رواه عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ. حدَّثنا جدِّي حدّثنا أبو القاسم الحريري بإسناده عن عبد الله بن عمرو قال: قال النبي ﷺ: «سَألتُ جِبرِيلَ لمَ اتخَذَ اللهُ إبراهيمَ خَلِيلاً؟ فَقالَ: لإطعامِهِ الطَّعَامَ[١]».

الثاني: لأنه أصاب أهل ناحيته جدب[٢]، روى أبو صالح عن ابن عباس قال: أصابت الناسَ سنةٌ جهدوا فيها، فجاؤوا إلى باب إبراهيم يطلبون الطعام، وكان له صديق بمصر، وكان يبعث إليه غلمانه بالإبل فيمتارون[٣]، فذهبوا إلى صديقه فلم يعطهم شيئاً، وقال: لو كان إبراهيم إنما يمتار لنفسه احتملنا ذلك، فقد دخل علينا من الشدَّة ما دخل على الناس، فرجعوا من عنده، فمرُّوا على كثيب رمل، فقال بعضهم: خذوا منه لئلا يقول الناس لم يأتوا بشيء، فملؤوا تلك الغرائر وجاؤوا فأخبروا إبراهيم بأن صديقه لم يعطهم شيئاً، وأنَّهم ملؤوا الغرائر رملاً، فنام مهموماً. وجاءت سارَة ـ وكانت غائبة ـ ففتحت بعض الغرائر تظنُّ أنَّ في الغرائر دقيقاً، فإذا دقيق حُوَّارى[٤]، فعجنت وخبزت، فانتبه إبراهيم فرأى الخبز فقال: من أين هذا؟ قالت: من عند خليلك المصري. فقال: بل من عند خليلي الله، ففرَّقه على النَّاس فاتخذه الله خليلاً[٥].

والثالث: لأنه لما كسر الأصنام غَيرةً لله اتخذه اللهُ خليلاً، قاله مقاتل[٦].

والرَّابع: لأنه لم يخير بين شيئين إلَّا اختار ما لله فيه رضىً. قاله الربيع بن أنس.

وقال ابن سعد بإسناده عن ابن عباس قال: لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً كان له يومئذ ثلاث مئة عبد فأعتقهم، فكانوا يجاهدون بين يديه[٧]. وإبراهيم أوَّل من عمل القسيَّ العربية، وأما القسيُّ الأعجميَّة فأوَّل من عملها نمرود[٨].

---

(١) انظر «زاد المسير» ٢/ ٢١٢. و«المنتظم» ١/ ٢٧٣. وأخرجه البيهقي في «شعبه» (٩٦١٦).

(٢) قوله: الثاني . . . إلى هنا ليس في (ل) و(ب)، والمثبت من (ط).

(٣) يمتارون: يجلبون الطعام.

(٤) الحوارى الدقيق الأبيض وهو لباب الدقيق.

(٥) انظر «المنتظم» ١/ ٢٧٣ـ٢٧٤، و«التبصرة» ١/ ١٠٩.

(٦) انظر «التبصرة» ١/ ١٠٩، و«المنتظم» ١/ ٢٧٤.

(٧) انظر «الطبقات» ١/ ٤٧.

(٨) أخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» ١/ ٢٧٤.

فصل في سؤال الخليل ربَّه أن يريه كيف يحيي الموتى

فإن قيل: فهل كان شاكّاً حتى قال: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[البقرة: ٢٦٠]؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه أراد أن يجمع بين علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، كما أنَّ الإنسان يعلم الشيء ويتيقَّنه ولكن يحبُّ أن يراه عياناً، كما أنَّ المؤمنين يحبُّون الله ويختارون رؤيته في الجنان مع الإيمان وزوال الشك، قاله ابن عباس.

والثاني: أنه رأى دابَّة ميِّتة على جانب البحر تأكلها دوابُّ البحر وتمزِّقها دواب البرِّ، فجاءه الخبيث فقال له: يا إبراهيم، متى يجمع الله هذه من بطون السِّباع والحيتان؟ فقال: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ لتذهب عني وسوسة الشيطان، قاله ابن زيد ومقاتل.

والثالث: أنه لما بُشِّر بالخلَّة سأل ذلك ليتيقَّن بالإجابة صحَّة ما بشّر به، قاله ابن مسعود والسُّدي.

والرَّابع: لأنه لما ناظر نمرود وقال له: أنا أحيي وأميت قال: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾[البقرة: ٢٥٨] قال له نمرود: أنت عاينت ذلك؟ فلم يقل: نعم لأنه ما شاهده، فلمَّا قال: أرني كيف تحيي الموتى قال له الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ فلعلَّ نمرود يناظرني مرَّة ثانية فأقول: نعم، فلا أحتاج إلى الانتقال إلى حجَّة أخرى[1].

فإن قيل: فكل هذه الأجوبة مجاز لا حقيقة، وقد ثبت أنه كان شاكّاً مثل قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾[الأنعام: ٧٦ـ٧٨] والدليل عليه ما رواه الأئمة، فقال أحمد بإسناده عن سعيد بن المسيَّب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نحنُ أحقُّ بالشَّكِ من أَبينَا إبراهيمَ حيثُ قالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] ثم قرأ الآية حتى أنجزها، أخرجاه في الصحيحين[2]، وفيه: «يَرحمُ اللهُ لوطاً لقد كانَ

(١) انظر تفسير الطبري ٥/ ٤٨٥، والبغوي ١/ ٢٤٧، وزاد المسير ١/ ٣١٣، والمنتظم ١/ ٢٧٥.

(٢) أخرجه أحمد (٨٣٢٨)، والبخاري (٤٥٣٧)، ومسلم (١٥١).

يَأوِي إلى رُكنٍ شَديدٍ ولو لَبِثتُ ما لَبِثَ يُوسفُ في السِّجنِ لأَجَبتُ الدَّاعِي»[١].

والجواب: قالوا: ما شهد له الرَّسول بالشكِّ، وإنما مدحه لأنَّ معناه نحن أحق بالشكِّ منه وما شككنا، وكيف يشكُّ هو، وإنما شكَّ هل يجيبه إلى سؤاله أم لا؟ وكذا باقي الحديث مدح للوط ويوسف.

وقال ابن إسحاق: هذه الواقعة جرت لإبراهيم قبل النبوَّة، وقبل إنزال الصحف، وقبل أن يولد له، وقبل بناء البيت، لأنه مرَّ على بحيرة طبريَّة لما دخل الشَّام فرأى الميتة على جانبها فيكون هذا من جنس قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾.

وقال محمد بن مقاتل الرَّازي: ما كان شاكّاً في القدرة بدليل قوله: ﴿أَرِنِي﴾ ولو كان شاكّاً لقال: هل تحيي الموتى؟ فكان معنى قوله: ﴿أَرِنِي﴾ أي ما أنا موقن به، ولكن ليطمئنَّ قلبي بزيادة اليقين والحجَّة وحقيقة الخُلَّة وإجابة الدعوة. فقال له الله تعالى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾.

واختلفوا في الذي أخذ، والمشهور أنَّه أخذ طاووساً ونسراً وغراباً وحماماً، رواه مجاهد عن ابن عباس[٢]، وفيه إشارة إلى أحوال الدنيا فالطَّاووس من الزينة، والنسر من امتداد الأمل، والغُراب من الغربة، والحمام من النِّياحة، وقيل: وديكاً عوض النسر.

﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ ومعناه: اجمعهُن وضمَّهنَّ، ومعناه أيضاً: قطِّعهنَّ ومزِّقهنَّ، وأنشدوا في اللغز: [من الخفيف]

وغـــلام رأيـــتُـــه صَـــارَ كَـــلـــبـــاً ثُـــمَّ فـــي ســـاعـــتـــيـــنِ صـــارَ غَـــزالا[٣]

﴿ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ﴾ أي بعضاً.

فإن قيل: فلم قال: ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾[البقرة: ٢٦٠] ولم يقل: طيراناً، قلنا: لو طارت لتوهم متوهِّم أنها غيرُ تلك، وأنَّ أرجلَها غيرُ سليمة، فكان أبلغ في الحُجَّة وأبعد من الشُّبهة.

---

(١) أخرجه أحمد (٨٣٢٩)، والبخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١).

(٢) انظر «زاد المسير» ١/ ٣١٤.

(٣) البيت في «العقد الفريد» ٦/ ٤٧٢، قوله: صار كلباً؛ ضم كلباً، من صار يصور.

وقال مقاتل: هذا مَثَلٌ ضربه الله فكأنَّه يقول: كما قدرتُ أن أبعث هذه الأطيار من هذه الأجبل الأربعة، فكذا أبعث الناس يوم القيامة من أرباع الأرض ونواحيها، وهي الجنوب والشمال والدَّبُور والصَّبا.

فإن قيل: فلمَ خصَّ أربعة أطيار؟ قلنا: لأجل الاستقصَّات الأربع التي بها قوامُ العالم.

والجبال من جبال الشام، وقيل: على جبل لُبنَان، وسَنِير، وجبل القُدس، وطُور سَيناء.

وقال أبو إسحاق الثعلبي: سمعت أبا القاسم ابن حبيب يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبا الحسن الأقطع وكان حكيماً يقول: صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لكل آيةٍ ظهرٌ وبطنٌ، ولكلِ حرفٍ حدٌّ ومَطلعٌ». وظاهر الآية ما ذكره أهل التفسير، وباطنها أنَّ إبراهيم أُمِرَ بذبح أربعة أشياء في نفسه بسكين الإياس، كما ذبح الأَطيارَ الأَربعةَ بسكين الحديد، فالنسر مَثلٌ لطول العمر والأمل، والطَّاووس زينةُ الدنيا وبهجتُها، والغراب الحرص، والدِّيك الشهوة.

قلت: الخليل عليه السَّلام منزَّهٌ عن مثل هذا، لأنَّ الله تعالى عصمه من كل ما ذُكِرَ من الأمثال، فتحصيل الحاصل محال.

فصل في ابتلائه بالكلمات

قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾[البقرة: ١٢٤] الآية. والابتلاء: هو الامتحان والاختبار.

واختلفوا في الكلمات: قال ابن عباس: هي خمسٌ في الرَّأس: قصُّ الشارب، والمضمضة والاستنشاق، والسِّواك، وفرق الرَّأس، وخمس في الجسد: وهي تقليم الأظفار، وحلق العانة، ونتف الإبط والختان، وغسل موضع الاستنجاء والبول بالماء[1].

(١) انظر «المنتظم» ١/ ٢٧٥ـ٢٧٦.

وقال الحسن البصري: ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر[١].

وقال مجاهد: بالنَّار.

وقال الرَّبيع: بالجبَّار الذي أخذ سارَة.

وقال مقاتل: بنمرود.

وقال مقاتل بن حيَّان: بذبح الولد.

وروي عن ابن عباس أنَّها المناسك: الطَّواف بالبيت والسَّعي ورمي الجمار والإفاضة، والغسل من الجنابة والغسل يوم الجمعة. وقال مقاتل بن سليمان: هي كل مسألة في القرآن مثل قوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥] ونحو ذلك.[٢]

قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [البقرة: ١٢٤] الذريَّة: من ذرأ الله، أي: أخرج، وقال الزجاج: هي فعلية من الذرِّ الذي أخرج من ظهر آدم. قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] أي: لا ينال ميثاقي العصاة[٣].

فصل في ابتلائه بذبح ولده[٤]

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ﴾[الصافات: ١٠٢] الآية. قال علماء السِّير: كان السبب في الأمر بذبح ولده أنه لما فارق قومه مهاجراً إلى الشام فارَّاً بدينه كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾[الصافات: ٩٩] دعا أن يرزقه ولداً فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾[الصافات: ١٠٠] فلمَّا أقام بفِلَسطِين ونزل به أضيافه من الملائكة المرسلين إلى المؤتفكات ـ وهي قرى قوم لوط ـ وبشَّروه بغلام حليم، قال: هو لله ذبيح، فلمَّا ولد له الغلام من سارَة وصلح أن يسعى معه أتاه آتٍ في منامه فقال له: أوفِ بنذرك. وقال ابن عباس: وكان عمره يومئذٍ ثلاث عشرة سنة،

---

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٢٨٥.

(٢) انظر «زاد المسير» ١/ ١٤٠.

(٣) من قوله: مقاتل بن سليمان . . . إلى هنا ليست في (ب).

(٤) جاء هذا الفصل في «ب» بعد فصل هلاك نمرود لاختلاط في الأوراق. وانظر في هذا الفصل تاريخ الطبري ١/ ٢٧٢، وتفسيره ١٩/ ٥٨١، وتفسير البغوي ٤/ ٣٣، وعرائس المجالس ٩٥، وزاد المسير ٧/ ٧٣، والمنتظم ١/ ٢٧٩، والتبصرة ١/ ١٣٧، والبداية والنهاية ١/ ٣٦٣.

وهذا الزَّمان أحبُّ ما يكون الولد إلى والده، لأنَّه قد استغنى عن الحضانة وكلفة التربية، ولم يبلغ إلى حالة العقوق، فكانت البلوى به أشدَّ. فقال له: يا بنيَّ، انطلق بنا نقرِّب قرباناً، فأخذ سكيناً وحبلاً وانطلق معه، حتى إذا كان بين الجبال قال له الغلام: يا أبتِ، أين قربانك؟ فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾[الصافات: ١٠٢] الآية.

فإن قيل: فهل يجوز ذبح مثل ذاك الغلام بمنام، وقد كان جبريل يأتيه بالوحي شفاهاً لا في الأحلام؟ فالجواب: إنَّ الإنسان يكره أن يواجه بذبح ولده، فترك مخاطبة جبريل بذلك من باب الاحترام والإجلال والإعظام، وأمَّا منامات الأنبياء عليهم السَّلام فحقٌّ لأنها وحي على لسان ملك الرؤيا، وتارة يخاطبهم الله تعالى بما فيه مصالح الأنام.

وقال علماء السِّير ممن سمَّينا: لمّا رأى إبليس ذلك قال: لئن لم أفتنْ إبراهيم اليوم وولده وسارَة، وإلا لم أظفر منهم بشيء أبداً، فأتى أمَّ الغلام فقال لها: هل تدرين أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت: ذهب يحتطب لنا من هذا الشعب، قال: والله ما ذهب به إلا ليذبحه، فقالت: كلَّا هو أرحم به وأشدُّ حبّاً له، قال: يزعم أنَّ الله أمره بذلك، فقالت: إن كان ربه أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربَّه، سلَّمنا لأمر الله وقضائه. فلمَّا يئس منها أتى الغلام وهو يمشي وراء أبيه فقال له: يا غلام، هل تدري أين يَذْهَبُ بك أبوك؟ قال: نعم يحتطب لأهلنا من هذا الشعب، فقال: لا والله، ما يريد إلّا أن يذبحك، قال: ولم؟ قال: يزعم أنَّ ربَّه أمره بذلك، قال: فليفعل ما أمره ربُّه به، سمعاً وطاعةً. فلمَّا يئس من الغلام أتى إبراهيم فقال: أيها الشيخ، أين تريد بهذا الغلام؟ قال: أريد هذا الشعب لحاجة لنا فيه، فقال: والله إني لأرى أن الشيطان جاءك في منامك فأمرك بذبح ابنك، فعرفه إبراهيم فقال له: إليك يا خبيث عني، فو الله لأُمضينَّ أمر ربي. فرجع عدوُّ الله خاسئاً خاسراً لم يبلغ من سارَة والغلام وإبراهيم ما أراد[1].

وقال ابن عباس: فلمَّا علم الغلام أنه ذابحه قال له: يا أبة، اشدد رباطي لئلا أضطرب، واكفف ثيابك عن دمي لئلا يصيب ثوبك فتراه أمي فتحزن، وأسرعْ مرَّ

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٩٧.

السكين على حلقي ليكونَ أهونَ للموت عليَّ، وإذا أتيت أمِّي فأقرئها السَّلام عني، واذكرْ لها ثواب الصابرين. فأقبل إبراهيم يقبِّله ويبكي ويقول: نعم العونُ أنت يا بُنيَّ على أمري، والغلام يبكي، وضجَّتْ ملائكة السماء بالبكاء، فقال الله: يا ملائكتي، انظروا إلى عبدي استحقَّ الخُلَّة أم لا؟ فقالوا: إلهنا، لو كنَّا مكانه لم نصبر.

وإنما قال له: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢] ليختبر ما عنده من الرَّأي في أمر الله فإن أجاب حزن عليه، وإن امتنع لم يحزن عليه. فلمَّا قال له: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ازداد بلوىً بفراقه.﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ أي: استسلما لأمر الله ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣] أي: صرعه على جنبه فصار أحد جَبينَيهِ على الأرض ـ وهما جبينان والجبهة بينهما، والعوام تسمِّي الجبهة جبيناً ـ فأمرَّ السِّكين على حلقه فلم تعمل شيئاً، وضرب الله على حلقه صفيحة نحاس فانقلبت السكين، فناداه الغلام: يا أبت، اقلبني على وجهي فلعلك تستحي أو تدرك رقة فتحول بينك وبين أمر الله. وضجَّت السَّماوات والأرض ومن فيهما لما رأوا من صبر الغلام. فبينما هو كذلك قلب الله الشفرة ونودي الخليل ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾[الصافات: ١٠٥] فالتفت فإذا بكبش أملح من الجنَّة قد رعى فيها أربعين خريفاً. وقال مقاتل: هو الكبش الذي قرَّبه هابيل، جاء به جبريل.

وروى أبو الطفيل عن ابن عباس: أنَّ إبراهيم فدى ابنه بكبشين أبيضين أعينين أقرنين حكاه جدِّي رحمه الله في «التبصرة»[١].

فخلى عن الغلام وجعل يقبِّله ويبكي ويقول: اليومَ وُهبت لي يا بنيَّ، واشتغل بذبح الكبش عنه، فحلَّ جبريل كتافه فالتفت إبراهيم فرآه فقال: من حلَّ كِتافك؟ فقال: الذي جاءك بالكبش.

وقال أهل المعاني: هذا جواب إبراهيم لما ذهب إسماعيل ليأتيه بالحجر الأسود وجاءه جبريل به، وجاء إسماعيل فقال: يا أبت، من أين لك هذا؟ قال: جاءني به من لم يكلني على بنائك[٢].

---

(١) انظر «التبصرة» ١/ ١٣٨، وعرائس المجالس ٩٦.

(٢) انظر تاريخ الطبري ١/ ٢٧٣ـ٢٧٦، و«عرائس المجالس» ص ٩٠.

فإن قيل: فكيف لم تقطع السكين حَلْقَ الغلام، وقطعت حلق الحسين عليه السَّلام؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: لأنَّ النبي ﷺ كان في ظهر الذبيح على قول من يقول إنه إسماعيل، فلم تعمل السكين فيه احتراماً لرسول الله ﷺ.

والثاني: لأنها لو قطعت عنق الذبيح لاحتاج النَّاس في كل سنة إلى ذبح أولادهم أسوةً به، ففداه الله بالكبش لطفاً منه ورحمة، فكان الكبش فداء للنَّاس كلهم إلى يوم القيامة.

والثالث: لأنَّ الذابح للغلام كان شفيقاً، والذابح للحسين كان عدوّاً، العدوُّ ما في قلبه رحمة بخلاف الوالد.

والرَّابع: أنَّ الحسين وافق أولاد الأنبياء كيحيى بن زكريا، ولهذا عدد حروف اسم الحسين على عدد حروف يحيى، فجعلت الموافقة في الاسم والرَّسم والشَّهادة، وحظي قاتل الحسين باللعنة إلى يوم القيامة من عالم الغيب والشهادة.

قال علماء السِّير: فلمَّا رجع الغلام إلى أمِّه رأته ممتقعَ اللون، فسألته فأخبرها فقالت: أردتَ يا إبراهيم أن تذبح ولدي ولا تخبرني؟! فيقال: إنَّها انفطرت مرارتها فماتت بعد ثلاثة أيَّام[1].

وقال مقاتل: إنما رأى مقدِّمات الذَّبح من المعالجة ولم ير الإراقة، فلمَّا فعل في اليقظة ما رآه في المنام قيل له: ﴿صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما ذكرنا من العفو عن ذبح ولده ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[الصافات: ١٠٥] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾[الصافات: ١٠٦] أي الاختبار الخالص.

وقال الزهري: وفي ذلك يقول أميَّة بن أبي الصَّلت[2]: [من الخفيف]

ولإبـراهـيـمَ الـمُـوَفِّـي بـالـنَّـذ ... رِ احـتـسـاباً وحـامـلِ الأثـقـالِ

(١) انظر «التبصرة» ١/ ١٣٧.

(٢) «ديوان أمية» ص٤٤٠ـ٤٤٤، وتاريخ الطبري ١/ ٢٧٧ـ٢٧٨.

يـا بُـنـيَّ إنـي نَـذرتُـكَ لِـلَّـهِ ذبـيـحـاً فـاصـبـرْ عـلـى الأهـوالِ
بـيـنـمـا يَـنـزعُ الـسـرابـيـلَ عـنـهُ فـكَّـهُ ربُّـهُ بـكـبـش جُـلالِ
رُبَّـمـا تَـجـزَعُ الـنُّـفُـوسُ مِـنَ الأمـ ـرِلـهُ فَـرْجَـةٌ كـحَـلِّ الـعِـقَـالِ

من أبيات.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾[الصافات: ١٠٧] أراد الاسم، وهو ما هُيِّىءَ للذبحِ من الحيوانات، وهو ما يذبح إلى يوم القيامة، وهذا أبلغ. وقيل: إنما وصفه بالعِظَم، لأنه رعَى في الجنَّة مدَّة، وقيل: لأنَّه متقبَّل[١].

ذكر اختلاف العلماء في الذبيح هل هو إسحاق أم إسماعيل؟

ذهب عامَّة الصحابة والتَّابعين ومن بعدهم إلى أنه: إسحاق، وهو قول العباس بن عبد المطلب، وعليٍّ، وعمر بن الخطاب، وابن مسعود، وأنس، وأبي هريرة، وابن عباس في رواية، وكعب الأحبار، والحسنِ البصري، ومسروق، وقتادة، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والقاسم بن أبي بَزة، وعطاء، ومقاتل، وعبد الرحمن بن ساباط، والزهري، والسُّدي، وعبيد بن عمير، ووهب، وأبي ميسرة، وقول أهل الكتابين التوراة والإنجيل، ومذهب أبي حنيفة وأحمد، وعن ابن المسيِّب روايتان[٢].

وقالت طائفة: هو إسماعيل، وبه قال عبد الله بن عمر، وأبو الطفيل واثلة بن الأسقع، ومعاوية، وعبد الله بن سلَام، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب القرظي، والشعبي، وإحدى الروايتين عن ابن عباس وابن المسيِّب ومالك والشافعي، والحسن البصري في رواية[٣].

وجه قول القائلين إنه إسماعيل

قال أبو إسحاق الثعلبي: روى عمر بن عبد الرحمن الخطَّابي [بإسناده عن الصُّنابحي] قال: كنَّا عند معاوية بن أبي سفيان فذكروا الذبيح: إسماعيل أو إسحاق؟

(١) انظر «التبصرة» ١/ ١٣٨.
(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٢٦٣، و«المنتظم» ١/ ٢٧٧.
(٣) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٢٦٧، و«زاد المسير» ٧/ ٧٢.

obeikandl.com

فقال معاوية: على الخبير سقطتم، كنت عند النبيِّ ﷺ فجاءه رجل فقال: عُدْ عليَّ مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين، فضحك رسول الله ﷺ، فقيل له: يا رسول الله، وما الذبيحان؟ فقال: «أبي عبد الله وجدِّي إسماعيل»[١] مختصر.

وروى أبو جمرة[٢] ـ واسمه نصر بن عمران الضُّبَعيُّ ـ عن ابن عباس أنه قال: المفديُّ إسماعيل، وزعمتْ اليهود أنه إسحاق وكذَبت[٣].

وقال محمد بن كعب القرظي: إنَّا لنجد في كتاب الله أنَّ الذَّبيح إسماعيل، وذلك لأنَّ الله تعالى لما فرغ من قصَّة الذَّبيح قال: وبشَّرناه بإسحاق، فدلَّ على أنَّ قصَّة الذبيح كانت متقدِّمة على البشارة بإسحاق[٤].

وقال مقاتل: سأل عمر بن عبد العزيز [أحد] أحبار اليهود ـ وكان قد أسلم ـ عن الذبيح فقال: هو إسماعيل، قال: فما بال اليهود يقولون إنه إسحاق؟ قال: يعلمون أنه إسماعيل ولكنهم يحسدونكم فيقولون: هو أبونا إسحاق[٥]. ولأن الأمم توارثت النحر بمنىً من زمان الخليل عليه السلام إلى هلمَّ جرًّا، وموضع النَّحر بمنىً مشهور، وهو من شعائر الحجِّ، فإنَّ النَّحر هناك واجب حتى لو تركه لزمه دم.

وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: والذي نفسي بيده لقد كان أوَّل الإسلام، وإنَّ رأس الكبش لمعلق بقرنيه في ميزاب الكعبة وقد وحش، أي يبس[٦].

وقال الشعبيُّ: أنا رأيت قرنيه وكان يتوارثهما بنو إسماعيل كابراً عن كابر إلى أن احترق البيت في أيام الحجَّاج فاحترق القرنان.

وروي عن عليٍّ كرَّم الله وجهه أنَّه قال: الكبش الذي فُدِيَ به إسماعيل نزل من ثَبِير فنحره إبراهيم بمنىً.

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٩٥. وأخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٤٤٨، وقال الذهبي: إسناده واهٍ.

(٢) في «ل»: أبو الجوزاء، وفي (ب): أبو الجور، والمثبت من تهذيب الكمال (ترجمة نصر).

(٣) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٢٦٨ عن عطاء بن أبي رباح.

(٤) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٢٦٩، وانظر «عرائس المجالس» ص ٩٤.

(٥) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٢٧٠، وانظر «عرائس المجالس» ص ٩٤.

(٦) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٢٧٥ـ٢٧٦، وانظر «عرائس المجالس» ص ٩٦.

وقال الأصمعيُّ: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح أكان إسحاق أم إسماعيل؟ قال: أين ذهب عنك عقلك؟ ومتى كان إسحاق بمكَّة؟ وإنما كان بها إسماعيل، وهو الذي بنى البيت مع أبيه، والنحر بمنىً لا شك فيه.

وقال أبو إسحاق الثعلبي: سمعت أبا القاسم الحَبِيبي يقول: سمعت أبا بكر محمد ابن المنذر الضرير يقول: سمعت أبا محمد الزنجاني المؤذن يقول: سئل أبو سعيد الضرير عن الذبيح فقال:

إنَّ الذَّبِيح ـ هديت ـ إسماعيلُ نطق الكتابُ بذاك والتَّنزيلُ
شرفٌ به خصَّ الإله نبيَّنا وأبانَهُ التفسيرُ والتأويلُ

وروى مجاهد عن ابن عباس قال: لما أُمِرَ إبراهيم بذبح ولده عرض له الشَّيطان عند المشعر [الحرام] فسابقه، فسبقه إبراهيم، ثم ذهب به إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات فذهب، ثم عرض له عند الجمرة الثانية والثالثة وهو يرميه بسبع حصيات حتى مضى إبراهيم لأمر الله تعالى[1].

وجه قول القائلين بأنه إسحاق

قال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن الأحنف بن قيس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الذي أرَادَ إبراهيمُ ذبحه إسحَاق»[2].

وقال أبو إسحاق بإسناده أيضاً عن عمر بن حفص عن أبان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يَشفَعُ إسحاقُ بعدي فيقُولُ: يا ربِّ، صدَّقتُ نبيَّكَ وَجُدتُ بنفسي للذَّبحِ فلا تُدخِلِ النَّارَ من لا يُشرِكُ بِكَ شَيئاً، فيقولُ اللهُ: لا أُدخِلُ النَّارَ من لا يُشرِكُ بِي شَيئاً»[3].

وروى العباس عن النبي ﷺ أنه قال: «الذَّبيحُ إسحَاق». وأسنده جدي في «التبصرة»

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٢٧٦، وفي تفسيره ١٩/ ٦٠٣، وانظر «عرائس المجالس» ص ٩٧، ومابين معكوفتين من المصادر.
(٢) «عرائس المجالس» ص ٩٤.
(٣) «عرائس المجالس» ص ٩٤.

ولم يتكلم عليه ولا بيَّن ما فيه، وذكر في إسناده المبارك بن فَضَالة عن الحسن عن الأحنف بن قيس عن العباس[١]، وفيه نظر لما نذكره ولأنَّ الله أخبر عن خليله حين فارق قومه مهاجراً إلى الشام مع لوط وسارة فقال: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾[الصافات: ٩٩ـ١٠١]

وروى الثعلبي عن ابن مسعود قال: افتخر رجل عند ابن مسعود فقال: أنا فلان ابن الأشياخ الكرام، فقال ابن مسعود: ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن[٢].

وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن موسى مولى أبي بكر الصديق عن سعيد بن جبير قال: أُري إبراهيم ذَبْح ولده إسحاق في المنام فسار به مسيرة شهر في غداة واحدة حتى أتى به المنحر بمنىً، فلمَّا صرف الله عنه الذَّبح وأمره بذبح الكبش فذبحه سار به في روحة واحدة مسيرة شهر طويت له الأودية والجبال.

وقال أبو إسحاق: وروى عبيد بن عُمير عن أبيه قال: قال موسى: يا ربِّ، يقولون: يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب فبم ذلك؟ فقال الله: لأنَّ إبراهيم لم يعدل بي شيئاً قط إلَّا اختارني عليه، وإنَّ إسحاق جاد لي بالذبح، وهو بغير ذلك أجود، وإنَّ يعقوب كلَّما زدته بلاءً زاد بي حسن ظن[٣].

وذكر جدي في «التبصرة» هذا الحديث على غير هذا الوجه، عن العباس عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «قال داود: إلهي، أسمع الناس يقولون: إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فاجعلني رابعاً. قال الله: لست هناك، إنَّ إبراهيم لم يعدل بي شيئاً إلا اختارني عليه، وإنَّ إسحاق جاد لي بنفسه، وإنَّ يعقوب في طول ما كان لم ييأس من يوسف»[٤].

قال: وروى حمزة الزيَّات عن ابن إسحاق عن أبي ميسرة قال: قال يوسف للملك: تستنكف أن تأكل معي وأنا والله يوسف بن يعقوب نبيُّ الله، ابن إسحاق ذبيحُ الله، ابن

(١) «التبصرة» ١/ ١٣٥ـ١٣٦.
(٢) «عرائس المجالس» ص ٩٣.
(٣) «عرائس المجالس» ص ٩٣.
(٤) «التبصرة» ١/ ١٣٦.

إبراهيم خليلُ الله[١].

وقد روي أن المذبح كان بالقدس. وقال كعب الأحبار: نصُّ التوراة أنَّ الله قال لإبراهيم: خذ وحيدك الذي أحببته وامض إلى أرض الموريا ـ يعني صخرة القدس ـ وأصعدْهُ على الصخرة صعيدة، أي قربه، فخرج وصاح بغلمانه: ابعدوا، مخافة أن يستغيث الولد بواحد منهم فيمنعه ممَّا يريد، فيبطل ثمرة قبول الأمر ـ وهو الثَّواب الدَّائم ـ فقال له: يا بنيَّ، انطلق بنا نقرِّب قرباناً، فأخذ السكين والحطب والنَّار، فقال الولد: وأين الصعيدة؟ قال: هي أنت، فقال: ستجدني إن شاء الله من الصابرين فصعد على الصخرة وبنى عليها مذبحاً، وكتَّف الولد وجعله فوق الحطب، وأخذ المدية ليذبح الولد، فناداه الربُّ من السماء: يا إبراهيم، لا تمدَّ يدك إلى ولدك بسوء، فإني قد علمتُ وجميع ملائكتي وإنسي وجني أنك لم تمنع وحيدك عني، وإني قد باركت عليكما وفيكما. ثم التفت إبراهيم فأبصر كبشاً مربوطاً بقرنيه فأخذه وذبحه صعيدةً عوض الغلام، ورجع الغلام إلى أمِّه سارة[٢].

وقال وهب: كان المذبح بإيلياء من أرض فلسطين.

قلت: والواجب التوقُّف في هذا، فإنَّ الأدلة متعارضة من الجانبين: أمَّا على قول من قال إنه إسماعيل:

أمَّا الصُّنابحي فضعيف، وضَحِكُه ﷺ ـ إن ثبت الحديث ـ كان تعجُّباً من قول الرجل، ولو كان ابن الذبيحين لما ضحك.

وأمَّا رواية أبي جمرة[٣] عن ابن عباس أنَّه قال: الذبيح إسماعيل، فقد روى عنه الوالبي أن الذبيح إسحاق.

وأمَّا قول محمد بن كعب القرظي: إن الله قال بعد قصَّة الذبيح: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾[الصافات: ١١٢] فقد قال: نبياً وهذا لا ينفي أن يكون ذبيحاً.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٢٣/ ٣٨. وانظر «عرائس المجالس» ص ٩٣ـ٩٤.

(٢) «سفر التكوين» ٢٢/ ١ـ٩.

(٣) في «ل» و«ب» ابن الجوزاء وقد تقدم أنه أبو جمرة والله أعلم.

وقولهم: إنَّ الأمَّة توارثت النحر بمنًى فلا يدلُّ على أن الذَّبيح لم يكن إسحاق لوجهين:

أحدهما: لأنه يحتمل أنَّ اللهَ تعالى أمر الخليل بنحر كبش[١] بمنًى، وجعل ذلك من شعائر الإسلام ومناسك الحج.

ويحتمل أنَّ إبراهيم سار بإسحاق إلى منًى وعاد كما ذكر سعيد بن جبير[٢]، وأخرجه أحمد في «المسند» أنه إسحاق[٣].

وأمَّا قول ابن عباس: لقد كان رأس الكبش معلَّقاً بقرنيه في أوَّل الإسلام. فبعيد لأنَّ بين إبراهيم ونبيَّنا محمد ﷺ ثلاثة آلاف سنة، لما نذكر فيما بين الأنبياء من السنين، فكيف يبقى رأس الكبش هذه المدَّة؟ ويحتمل أنه رأس كبش آخر.

وما روي عن عليٍّ كرَّم الله وجهه فقد روي عنه أنَّ الذَّبيح إسحاق. وقول ابن عباس عرض له الشيطان عند العقبة لا ينفي أن يكون إسحاق.

وأمَّا على قول القائلين بأنه إسحاق، فالأخبار التي ذكرها الثعلبي غريبة جداً. وأمَّا حديث العباس فلا يصحُّ مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ، قال محمد بن إسحاق: رواه المبارك بن فضالة عن الحسن فوقفه على العباس، وكذا رواه عكرمة عن ابن عباس عن أبيه، وعكرمة ضعيف.

وقولهم: ليس في القرآن أنه بُشِّر بولد إلا بإسحاق، فقد ثبت في الصحيح: أنَّ إسماعيل وُلِدَ له أوَّلاً على ما رواه البخاري، فنزل منزلة المتواتر، ولا يختلفون فيه. وأمَّا الآثار فمعارضة بمثلها.

قلت: وإذا وقع التعارض وجب التوقف، أو نطلب الترجيح، فنقول: مذهب من قال بأنه إسحاق مذهب الجمِّ الغفير من الصحابة وغيرهم، ومن خالفهم مثل عليٍّ وابن عبّاس فقد روينا عنهما مثل قول الجميع.

---

(١) في «ب» كبشين.

(٢) انظر «الزهد» لأحمد بن حنبل ص ١٠٢.

(٣) مسند أحمد (٢٧٩٤) من حديث ابن عباس مرفوعاً، وإسناده ضعيف.

ونطلبه أيضاً من التاريخ فإنَّ علماء السِّير لا يختلفون أنَّ أوَّل ولد إبراهيم إسماعيل وأنه حمله صغيراً مع أمِّه إلى مكَّة، وأنه غاب عنه مدة بحيث تزوَّج امرأتين، وأنَّ إبراهيم جاءه وهو ابن ثلاثين سنة ولإبراهيم مئة سنة؛ واتفقوا أيضاً على أنَّ هاجر ماتت بمكة ولها تسعون سنة، واتفقوا أيضاً على أن الملائكة بشَّرت سارة بالولد وقد أتى عليها تسعون سنة، وأتت على إبراهيم مئة وعشرون سنة، وأنَّ إبراهيم لما بشَّروه بالولد قال: هو لله ذبيح. واتفقوا على أنَّ سارة لم تدخل الحجاز، وأنَّ إسماعيل لم يدخل الشام؛ وقال جدِّي في «التبصرة»: والأصحُّ أنَّ الذَّبيح إسحاق[1]. فبان بما ذكرنا من الترجيح أن الذبيح إسحاق.

واختلف العلماء في مَنْ نذر أن يذبح ولده أو ينحره؛

فقال أبو حنيفة وأحمد ومحمد: يصحُّ نذره ويلزمه ذبح شاة ويخرج عن العهدة استحساناً. والقياس أن لا يصح، وبه قال أبو يوسف وزفر ومالك والشافعي، وجه قولهم أنَّ النذر بهذه الأشياء ليس بقربة ولا طاعة، وصار كما لو قال: لله عليَّ أن أقتلَ ولدي أو أذبحَ والدي أو جدِّي أو عمِّي أو خالي أو عبدي. ولنا قصَّة الخليل عليه السلام، فإنَّه نذر أن يذبح ولده ففدي بكبش ولنا به أسوة.

وقولهم ليس بقربة، قلنا: نفس النذر ليس بقربة، لكنَّ النذر يوجب ذبح شاة، والذبح قربة بخلاف ما ذكروا من الأحكام، فإنَّ النَّذر بها لا قربة فيه، على أنَّ لأصحابنا فيه منعاً. وأمَّا العبد فيصحُّ عند محمد لأنه مال، والمال محبوب، وعند أبي حنيفة إنما لا يصحُّ لأنَّ النصَّ ورد في الولد، والعبد ليس في معناه.

قصة[2] الخليل عليه السلام مع العابد

روى وهب بن منبِّه قال: لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً قال: يا ربِّ، أرني وليّاً من أوليائك، فأوحى الله تعالى إليه: اطلبه على ساحل البحر، فنزل يمشي على السَّاحل وإذا بكهلٍ قائم يصلي، فلمَّا رآه أوجز في صلاته، فسلَّم عليه إبراهيم وقال: سلامٌ

(١) «التبصرة» ١/ ١٣٦.

(٢) من هنا وقع سقط في «ب» ينتهي في التالية.

عليكَ يا وليَّ الله، فردَّ عليه السَّلام وقال: وعليك السَّلام يا خليل الله، فقال: من أين علمتَ أني خليل الله؟ فقال: أخبرني الذي أخبرك أني وليُّ الله، وهناك شجرة خضراء شديدة الخضرة، والسَّاحل يشرق من نور وجه الوليِّ، فأخذا يتذاكران، فمرَّت بينهما غزالة فوقعت مشويَّةً بين أيديهما، فقال الخليل: بسم الله، فقال الوليُّ: والذي دلَّك عليَّ ما أفطرتُ نهاراً منذ أربعين سنة، ولولا كرامتك لما أفطرت، فأكلا منها، فلمَّا فرغا قال الوليُّ: عودي كما كنت بإذن الله، فقامت الغزالة تمشي. ثم قام الوليُّ وودَّع الخليل ودخل البحر يمشي على الماء، فعجب الخليل وقال: يا ربِّ، ما كنت أقول إنَّ في عبادك من يشبهني فبمَ أعطيتَ هذا العبدَ ما أعطيته؟ فقال الله: بحسنِ يقينه، ولو ازداد يقيناً لطار في الهواء.

قصة إبراهيم عليه السَّلام مع العبد الحبشي

روى السُّدي عن أشياخه قال: خرج إبراهيم عليه السلام في السياحة فوقع في مفازة، فعطش ولم يقدر على الماء، فإذا بعبدٍ حبشي يرعى غنماً، فقال: أنا عطشان، فقال: يا خليل، أيما أحبُّ إليك اللبن أم الماء؟ فعجب الخليل لما ذَكر اسمه وقال: الماء، فضرب الأرض بقدمه، فنبع ماءٌ أحلى من العسل، وأبرد من الثلج فشرب إبراهيم وبكى، وقال: إلهي، عبدٌ حبشيٌّ له عندك هذه المنزلة، وأنا خليلك أعطش ولا أقدر على الماء. فأوحى الله إليه: وعزَّتي وجلالي لو سألني هذا العبد الحبشي أن أزيلَ السماوات والأرض لفعلت، إنه لا يريد من الدنيا والآخرة سواي.

قصة الخليل عليه السَّلام مع المجوسي

حكى وهب بن منبِّه عن مجاهد قال: كان إبراهيم عليه السلام لا يُضيف من يكفر بالله، فنزل به مرَّة مجوسيٌّ فأضافه ولم يعلم أنه مجوسي. فلمَّا جاء وقت الصلاة قام إبراهيم يصلي، والمجوسي جالس، فقال له: يا شيخ، لم لا تصلي؟ فقال: هو مجوسيٌّ، فطرده وقال: لا أضيف من يكفر بالله، فقام وخرج وهو منكسر القلب. فأوحى الله إليه: يا إبراهيم، أنا منذ سبعين سنة أرزقه على كفره وأنت بخلتَ عليه بلقمة؟! فقام إبراهيم وخرج يعدو خلفه، ارجع[1]، فقال: لا حاجة لي في ضيافتك بعد

(١) يعني ويقول له: ارجع.

أن طردتَني، فقال: إنَّ ربي عاتبني فيك فقال لي: كذا وكذا، فبكى المجوسي وقال: نِعم الرَّب ربٌّ يعاتب وليَّه[١] في عدوِّه، ثم أسلم.

قصة الخليل عليه السلام مع المَلَك

روى وهب بن منبِّه عن أشياخه قالوا: أقام الخليل بالشَّام، فكثرت أمواله[٢] ومواشيه وعبيدُه، فجلس يوماً على تلٍّ عالٍ وبين يديه ألف قطيع من الغنم، في كل قطيع عبد وكلبٌ في عنقه طوق من ذهب، وما شاء الله من الخيل والإبل. فقال بعض الملائكة: أيتَّخذ ربُّنا من نطفة آزر خليلاً ويؤتيه هذا الملك العظيم؟! ـ وفي رواية: فقالت الملائكة ذلك ـ فأوحى الله إليهم: اعتمدوا على من شئتم ينزل إلى الأرض يختبره، فاختاروا بعض الملائكة، وقيل: اختاروا جبريل وميكائيل، فنزلا في صورة فقيرين، فقال لهما الله: اذهبا فاذكراني عنده، فجاء جبريل فوقف عن يمينه وميكائيل عن شماله، فقال جبريل بصوت رخيم: قدوس قدوس، وقال ميكائيل: ربُّ الملائكة والرُّوح، فانتفض إبراهيم انتفاضةً وقال: ما تريدان؟ فقالا: قطيعاً من الغنم، فقال: خذا مهما شئتما أن تأخذا. ثم لم يزالا حتى أخذا الجميع فقال: أعيدا ما قلتما وخذا جميع أهلي وأولادي وما أملك، ففعلا. فضجَّت الملائكة والسماوات والأرض والجبال والشجر والدَّواب وقالوا: هذا والله الكرم، وقال قائل: الخليل موافق لخليله. ثم ارتفعا إلى السماء وهما يقولان: حق لك يا ربَّنا، أن تتخذ هذا خليلاً، فقال الله: رُدَّا عليه ما أخذتما وأضعفا له ذلك.

فصل في وفاة سارة وأولاد إبراهيم عليه السلام

قد حكينا أنها توفيت بعد قصَّة الذبح بثلاثة أيام[٣]، ودفنت في المغارة التي اشتراها الخليل عليه السلام. قال جدِّي رحمه الله في «أعمار الأعيان»: وعاشت مئة وسبعاً وعشرين سنة[٤].

---

(١) في (م): نبيه.

(٢) هنا ينتهي السقط في «ب».

(٣) انظر فصل ابتلائه بذبح ولده.

(٤) «أعمار الأعيان» ص ٩٨.

قال وهب: فتزوَّج إبراهيم بعدها امرأة من الكنعانيين من العرب العاربة، فولدت له ستة نفر، منهم مدين الذي أرسل شعيب إلى أولاده، واسم هذه المرأة: قنطوراء بنت يقطان، وقيل: بنت منطور. قال ابن الجواليقي: وقال حذيفة: يوشك بنو قنطوراء بالمذار أن يُخرِجوا أهل البصرة منها كأني بهم خُزْرَ العيون عِراضَ الوجوه. قال ابن الجواليقي: ويقال: إن قنطوراء كانت جارية إبراهيم فولدت له أولاداً والترك من نسلها[١].

وقال أبو السائب المخزومي: تزوَّج إبراهيم امرأة أخرى يقال لها: حجون أو حجورا، فولدت له خمسة بنين، وقال ابن قتيبة: فجميع أولاد إبراهيم ثلاثة عشر رجلاً[٢].

قلت: وقد حكى ابن سعد عن هشام ابن الكلبي عن أبيه عن أولاد إبراهيم[٣] فقال: إسماعيل أكبر ولده وأمُّه هاجر قبطيَّة، وإسحاق وأمُّه سارة. وقد ذكرناه[٤].

وقال ابن عباس: فرَّق إبراهيم أولاده فبعث إسماعيل إلى جرهم، وإسحاق إلى الشام، ولوطاً ابن أخيه إلى سدوم. وفي أيَّام الخليل أهلك اللهُ قوم لوط لما نذكر.

فصل في وفاة الخليل عليه السلام[٥]

روى الضحَّاك عن ابن عباس قال: لما أراد الله عز وجل قبض روح إبراهيم أوحى إلى الأرض إني دافن فيكِ خليلي، فاضطربت الدنيا وتشامخت الجبال، وتواضعت منها بقعة يقال لها: حِبْرَى، فأوحى الله إليها: يا حِبْرَى، أنت شعشوعي، وأنت قدسي، وفيك خزانة علمي، وعليك أُنزلُ رحمتي، وأسوق إليك خيار عبادي، فطوبى لمن وضع جبهته فيك، فيك أدفن خليلي وصفيِّي، فمن صلى فيك أمنته يوم الفزع الأكبر.

---

(١) «المعرب» ص ٣١٠.

(٢) «المعارف» ص ٣٣.

(٣) كذا، ولعله ضمّن حكى معنى الحديث والكلام، وانظر «الطبقات الكبرى» ١/ ٤٧.

(٤) انظر آخر فصل الذبيح إسحاق.

(٥) انظر المعارف ٣٣، وتاريخ الطبري ١/ ٣١٢، وعرائس المجالس ١٠٠، والمنتظم ١/ ٣٠٣، وتاريخ دمشق ٢/ ٣٥١ و٣٥٧ (مخطوط)، والبداية والنهاية ١/ ٤٠٢.

وقال الربيع بن أنس: كانت حَبْرون لجبَّار يقال له: عَفْرون، ومسكنه حِبْرَى، فاشتراها منه إبراهيم بأربع مئة درهم، واشترط عليه عَفرون كل درهم وزن خمسة دراهم، كل مئة منها ضرب ملك، فلم يقدر عليها، فجاءه جبريل بها، فقال عفرون: من أين لك هذه؟ فقال: بعث بها إليَّ خليلي رب العالمين مع أمينه على وحيه جبريل، فأسلم عفرون على يده. وجعلها إبراهيم لمن مات من أهله، فماتت سارَة فدفنها بها.

وروى مقاتل عن أبي إدريس الخولاني قال: لما أراد الله سبحانه أن يقبض روح إبراهيم أمر ملَك الموت أن يتلطَّف به، فجاءه في صورة شيخ ضعيف يرتعش، فقدَّم له طعاماً، فجعل الشيخ يأخذ اللقمة ليدخلها في فيه فيدخلها في عينه أو أذنه أو أنفه. وكان إبراهيم قد سأل ربَّه ألا يقبض روحه حتى يكون هو الذي يسأل ربَّه الموت، فقال للشيخ: ما الذي بك؟ فقال: الهرم، قال: كم أتى عليك من السنين، فذكر مثل سني إبراهيم إلا سنة[1]، فقال إبراهيم: قد بقي لي سنة وأصير مثل هذا، اللهم اقبضني إليك، فقام الشيخ فقبضه.

وذكر عبد الله بن أحمد عن أبيه قال: حدثنا الصَّلت بن مسعود بإسناده عن كعب الأحبار، وذكر بمعناه، وأن إبراهيم كان في كرم وقدَّم للشيخ عنباً، وذكره.

وبهذا الإسناد عن كعب قال: كان إبراهيم يقري الأضياف، فأبطؤوا عليه حتى إنه استراب بذلك، فخرج إلى الطريق فطلب ضيفاً، فمرَّ به ملَك الموت في صورة مسكين، فانطلق به إلى البيت فرآه إسحاق فعرفه فبكى، وبكى إبراهيم، وبكى ملَك الموت لبكائهما. ومضى ملك الموت، فقال له إسحاق: يا أبةِ أوصِ فما أرى أجلك إلَّا قد حضر، وهذا ملك الموت.

وحكى السّدي عن أشياخه قال: كان لإبراهيم بيت يتعبَّد فيه ولا يدخله غيره، فجاءه ملك الموت فدخله، فجاء إبراهيم فقال: كيف دخلت بيتي بغير إذني؟ فقال: ما دخلت إلَّا بإذنٍ، فعرفه، فقال: أرني الصورة التي تقبض فيها أرواح المؤمنين، فأراه إياها، فقال له: اقبض، فقبضه، وصعد بروحه إلى السماء فقال: يا إلهي قد جئت بروح من ليس في الأرض بعده خير.

قال وهب: فقال الله تعالى لإبراهيم، كيف وجدت الموت؟ فقال: كأن روحي تنزع

(١) انظر تاريخ الطبري ١/ ٣١٢.

بالسُّلَّاء[١]. فقال الله: قد هوَّنَّا عليك.

وحكى الحافظ في «تاريخ دمشق» عن ابن عمر قال: قال الله تعالى: يا جبريل، خذ ريحانةً من رياحين الجنَّة وانطلق بها مع ملك الموت إلى خليلي وحيِّه بها، وقل له: الخليل إذا طال به العهد أما يشتاق إلى خليله؟ ففعل، فقال الخليل: بلى قد اشتقت إلى لقائه. ثم شمَّ الريحانة فمات[٢].

وقال ابن سعد بإسناده عن هشام بن محمد عن أبيه قال: خرج إبراهيم إلى مكة ثلاث مرات، ودعا الناس إلى الحج في آخرهن، فأجابه كلّ شيء سمعه، فأوَّل من أجابه جرهم قبل العماليق ثم أسلموا ورجع إبراهيم إلى الشام فمات به وهو ابن مئتي سنة[٣].

وقال مجاهد: مات جماعة من الأنبياء فجأة، منهم الخليل وداود وسليمان والصالحون، وهو تخفيف على المؤمن وتشديد على الفاجر.

وقال وهب: دفن إبراهيم في مغارة حِبْرَى بإزاء سارَة، ثم دفن أولاده وأولاد أولاده وأهله في المغارة، وبينها وبين القدس عشرة أميال. ولما طال الزمان عفت آثارها. فلما بعث سليمان أوحى الله إليه بعد ما بنى البيت المقدس أنْ ابنِ على خليلي حَيْراً عالياً يعرف به قبره، فخرج سليمان فأتى القرية التي شمالي حِبْرَى، ويقال لها: بيت الرَّامة، فبنى هناك بنياناً وآثاره فيه، فأوحى الله إليه: ليس هو ها هنا ولكن انظر إلى النور المتدلي من السماء فاتْبَعْهُ، فنظر فإذا هو بالنور على حِبْرَى، فبنى عليه البنيان القائم اليوم، أمر الشياطين فبنته.

وفي حديث المعراج عن النبي ﷺ أنه قال: «مرَرتُ بقبرِ أبي إبراهيمَ فقال لي جبريلُ: انزلْ فصلِّ هنا ركعتين»[٤].

---

(١) في النسخ: «بالسل» والمثبت من تاريخ دمشق ٦/ ٢٥٦. والسُّلّاء: شوك النخل، واحدته: سُلّاءَة. وأخرجه ابن عدي في الكامل ٢/ ١٥٢ من حديث أبي هريرة.

(٢) «تاريخ دمشق» ٦/ ٢٥٥ـ٢٥٦.

(٣) «الطبقات الكبرى» ١/ ٤٨.

(٤) أخرجه ابن الجوزي في فضائل بيت المقدس ١٢٠، وفيه بكر بن زياد الباهلي، قال ابن حبان: دجال يضع الحديث، ثم ساق له هذا الحديث، ثم قال: وهذا شيء لايشك عوام أصحاب الحديث أنه موضوع. انظر ميزان الاعتدال (١٢٢٢).

وقال كعب الأحبار: في بعض الكتب يقول الله تعالى: مَنْ حِيل بينه وبين زيارة قبر محمد ﷺ فعليه بزيارة قبر إبراهيم.

وقال عبد الله بن سلام: زيارة قبر إبراهيم والصلاةُ عنده حجُّ الفقراء ودرجات الأنبياء.

فأمَّا ما يروى عن النبيِّ ﷺ: «من زارني وزار قبر أبي إبراهيم في عام واحد ضمنتُ له على الله الجنَّة»[١]، ففيه للمحدثين نظر.

فصل في مبلغ سنّه

واختلفوا فيه على ثلاثة أقوال:

أحدها: مئة وخمس وسبعون سنة، قاله الكلبي.

والثاني: مئة وتسعون سنة، قاله مقاتل.

والثالث: مئتا سنة، وهو الأصحُّ، وحكاه الخطيب عن ابن عباس، وذكره جدي رحمه الله في «أعمار الأعيان» وذكر جماعة عاشوا مائتي سنة منهم النابغة الجعدي وأدرك الإسلام وأسلم، وكذا الجعشم[٢] بن عوف بن جَذِيمة، ومحصن بن عبسان[٣] ابن ظالم، وسيف بن وهب بن جَذِيمة، وعامر بن جُوَين، والنَّمر بن تَوْلَب، وجَناب بن مَصاد بن مُرارة، وثُوَب بن ثُلْدة ووفد على معاوية، وأمية بن الأسْكر[٤]، والقُدار العَنَزي، وسويد بن خَذَّاق بن عبد قيس، وامرؤ القيس بن حُمام، وأبو الطَّمَحان القَيني من بني القَيْن واسمه حنظلة، وهو القائل: [من الوافر]

حنتني حانياتُ الدَّهر حتَّى ... كأنِّي خاتلٌ يَدْنُو لصَيْد
قصيرُ الخطوِ يحسبُ من يَراني ... ولست مقَيَّداً أنِّي بقَيْدِ[٥]

انتهت سيرة الخليل عليه الصلاة والسلام.

---

(١) قال النووي في «المجموع» ٨/ ٢٢٠: وهذا حديث باطل ليس هو مروياً عن النبي ﷺ، ولا يعرف في كتاب صحيح ولا ضعيف، بل وضعه بعض الفجرة، وزيارة الخليل ﷺ فضيلة لا تنكر، وإنما المنكر ما رووه واعتقدوه.

(٢) في (ب): «الجعيثم».

(٣) في «أعمار الأعيان»: «عتبان».

(٤) في (ل) و(ب): «يشكر»، والمثبت من«أعمار الأعيان»، وانظر «الإصابة» ١/ ٦٤.

(٥) «أعمار الأعيان» ص ١٠٧ـ١٠٩.

فصل في هلاك نمرود وبنائه للصرح وحديث النسور

قال علماء السِّير: وفي أيَّام الخليل عليه السَّلام احتال نمرود في صعوده إلى السَّماء لما شاهد نجاة إبراهيم، فازداد عتوّاً، وحلف ليطلبنَّ إله إبراهيم.

فحكى جدي رحمه الله في «التبصرة» عن السدي قال: فأخذ أربعة أفراخ من النُّسور، فربَّاهم باللحم والخمر حتى كبروا واستفحلوا، فجوعهم أيَّاماً وقرنهم بتابوت، ونصب أربعة رماح في جوانب التابوت، وربطها في التابوت بسلاسل، وجعل على رأس كلِّ رمح فخذاً من اللحم، وربط أعينها، وقعد في التابوت، ثم أمر بإزالة العصائب عن عيونها جملةً. فلمَّا رأت اللحمَ طارت بالتَّابوت فعلَت به حتّى نظر إلى الأرض كأنّها فلكة في ماء. وصعدت النسور فغابت عنه الأرض حتى وقع في ظلمة وريح ونار، فلم يرَ ما فوقه ولا ما تحته، فخاف ونودي أيها الطاغية: إلى أين تريد؟ فنكّس الرماح باللَّحم فأهوت النسور منقضَّات، فلمَّا رأت الجبال ذلك كادت أن تزول[1]. قال ابن عباس: فذلك قوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

وقد حكى القصة أبو إسحاق الثعلبي عن علي عليه السلام قال: قال علي وغيره: إنَّ نمرود الجبَّار قال: إن كان ما يقوله إبراهيم حقاً فلا أنتهي حتى أعلم ما في السماء، فأعدَّ النسور وقعد في التابوت وجعل معه رجلاً آخر، وجعل له باباً من فوق وباباً من أسفل. فلمَّا طارت النسور طمعاً في اللحم وأبعدت في الهواء قال نمرود لصاحبه: افتح الباب الأعلى وانظر إلى السماء هل قربنا منها؟ ففتح وقال: إن السماء كهيئتها، فقال: افتح الباب الأسفل وانظر إلى الأرض، ففتح وقال: أراها مثل اللُّجَّة والجبال مثل الدخان. قال: وقال عكرمة: وكان معه في التابوت غلام معه قوس ونشَّاب، فرمى سهماً فعاد إليه السهم ملطخاً بالدم فقال: كفيت شغل إله السماء.

قال: واختلفوا في ذلك السهم من أي شيء تلطخ؟ فقال عكرمة: سمكة من السمك فدت نفسها لله تعالى من بحرٍ في الهواء معلَّق.

---

(١) «التبصرة» ١/ ١١٠ـ١١١، وانظر تفسير الطبري ١٣/ ٧١٨ و١٤/ ٢٠٢، وتاريخه ١/ ٢٨٩، والمنتظم ١/ ٢٨٠، وزاد المسير ٤/ ٣٧٣.

وقال بعضهم: من دم طائر أصابه السهم[١].

قلت: وقول الثعلبي: إنَّ السمكة فدت نفسها لله تعالى، كلام ساقط وأين سبع سماوات والعرش والكرسي وسبعون ألف حجاب حتى يصل إليها سهم نمرود، وإنما يقال في هذا: إمَّا أن يكون استدراجاً لنمرود، أو اتفق أنَّ السهم أصاب طائراً.

وقال الثعلبي أيضاً: ولما هبطت النسور بالتابوت سمعت الجبالُ حفيفَ النسور ففزعت، وظنَّت أنه قد حدث بها حدث من السماء، أو أنَّ السَّاعة قد قامت فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾[٢].

وقال الربيع بن أنس: لما رأى أنه لا يطيق شيئاً أخذ في بناء الصرح، قال الجوهري: الصرح كلُّ بناء عال[٣]. ويقال للقصر: الصرح.

وقال مقاتل: بناه في ارتفاع ثلاثة أميال. فبينما الناس ذات يوم في ما هم إذ سقط الصرح، ففزعوا وتبلبلت ألسنتهم، وكان الصرح من الطين والآجر.

قلت: والعجب من سفه نمرود فإنه صعد إلى السماء حتى غابت عنه الأرض، ووقع في الظلمة ولم يظفر بطائل، فما قدر ارتفاع الصرح وهو مقدار فرسخ حتى يظفر بمطلوبه؟

وقوله: تبلبلت الألسن، وهمٌ، لأنها إنما تبلبلت في زمان أولاد نوح كما ذكرنا.

وذكر جدّي في «التبصرة» وقال: وأمَّا نمرود فإنه بقي بعد إلقاء الخليل في النار أربع مئة عام لا يزداد إلَّا عتوّاً، ثم حلف ليطلبنَّ إله إبراهيم وذكر حديث النسور والصَّرح. قال: وقال زيد بن أسلم: بعث الله إلى نمرود ملكاً فقال له: آمنْ بي وأترك عليك ملكك، فقال: وهل ربٌّ غيري؟ فأتاه ثانياً وثالثاً، ففتح عليه باباً من البعوض فأكلَت لحوم قومه وشربت دماءهم، وبعث الله بعوضة فدخلت في دماغه فمكث أربع مئة عام يضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به من جمع يديه فضرب بهما رأسه، فعذّب

(١) «عرائس المجالس» ص ٩٨ـ٩٩.

(٢) «عرائس المجالس» ص ٩٩.

(٣) «الصحاح»: (صرح).

بذلك إلى أن مات، هذا صورة ما حكى جدي رحمه الله[١].

وذكر وهب بن منبِّه القصَّة وقال: قال نمرود للملَك: ألربِّكَ جنود؟ قال: ولم؟ قال: ليقاتلني، فإني ملك الملوك، وإنَّ الملوك يقاتل بعضهم بعضاً، فقال: اجمع جنودك إلى ثلاثة أيَّام، فجمع وحشد، وأمر الله خَزَنَةَ البعوض أن يفتحوا منها باباً، ففتحوا، فلمَّا كان في صبيحة اليوم الثالث نظر نمرود إلى الشمس وقال: ما لها لا تطلع؟ ظنّاً منه أنَّها أبطأت، فقال الملك: حالت دونها جنود ربي. فأحاطت بهم البعوض فأكلت اللحوم وشربت الدماء، فلم يبق من الناس والدواب إلا العظام، ونمرود بحاله لم يصبه شيء فقال له الملك: أتؤمن؟ قال: لا، فأمر الله بعوضةً فقرضت شفته العليا أو السُّفلى فحكّها فشريت وعظمت، ثم دخلت منخريه ووصلت إلى دماغه فأكلت منه حتى صارت كالفأرة فأقام أربعين سنة يُضرب رأسُه بالمطارق.

وقال مقاتل: أربعين يوماً، وقيل: ست مئة سنة، قال السُّدي: والأصحُّ أربعين سنة، حتى هلك[٢].

وقال السُّدي: نمرود أوّل ملوك بابل، وهم النبط الذين شقُّوا الأنهار، وأن الفرس الأول إنما انتقل الملك إليهم منهم، كما أخذت الروم الملك من اليونان. وقال ابن الكلبي: من زعم أن نمرود كان عاملاً للضحَّاك فقد وهم، لأنَّ نمرود أوَّل ملوك النبط، والضحَّاك ينسب إلى الفرس، والله أعلم[٣].

(١) «التبصرة» ١/ ١١٠ـ١١١.

(٢) عرائس المجالس ٩٩.

(٣) انظر تاريخ الطبري ١/ ٢٩٠ـ٢٩٢، والمنتظم ١/ ٢٨٢.